خالد بن شعبان لحيمر

رجل وامرأة

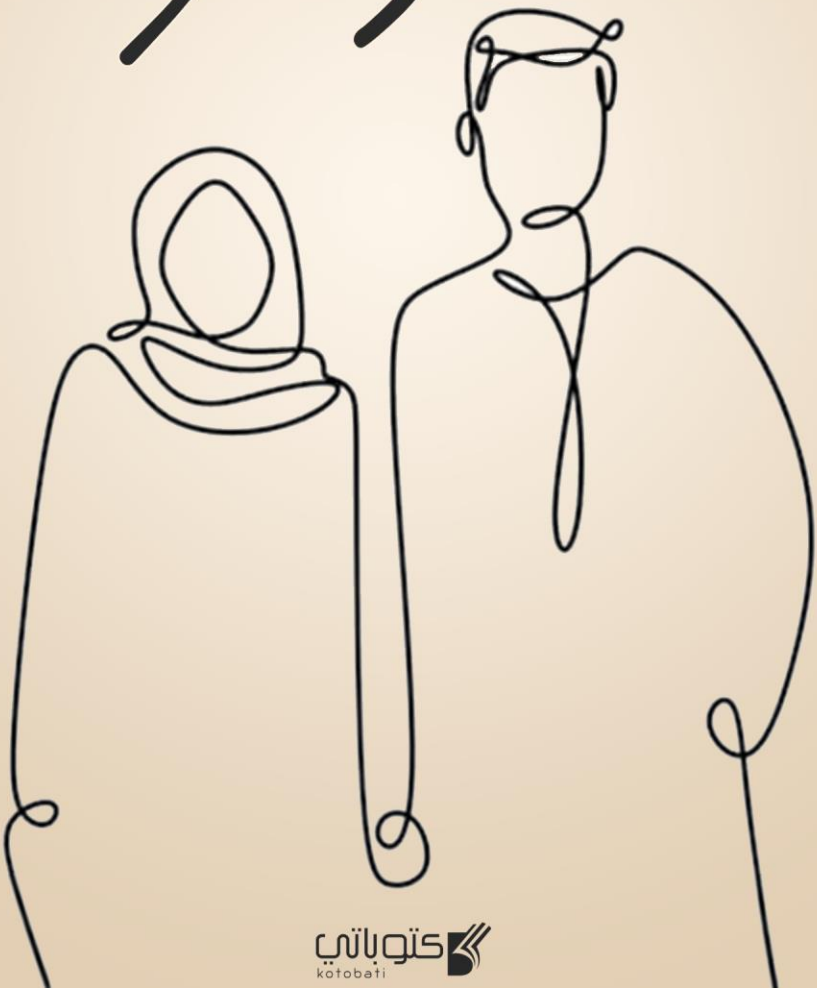

كتوباتي
kotobati

رجل
وامرأة

خالد بن شعبان لحيمر

الكتاب: رجل .. وامرأة

تأليف: خالد بن شعبان لحيمر

النوعية: ديني

التصميم والتنسيق: مكتبة كتوباتي

مسجّل في وزارة الثقافة والفنون الجزائرية تحت الرقم: 2023/306

ومسجّل في مصر تحت رقم الإيداع : 2023/6382

الترقيم الدولي : 978-977-86840-2-5

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

مقدّمة 4
أفتّش عن امرأة 7
الزوجة الثانية 11
صيحة في فلاة 30
الأقربون أولى بالمعروف 46
ومن البرّ ما يكون عقوقًا..!! 51
مراسَلة بين والد وولده 56
رسالة عزاء 57
أكل الحلال ، وأكل الحرام ، وأثر هذا وهذا في الإنسان 59
شؤم الذنوب 69
فصل 83
فصل 85
فصل 87
نهاية سدوم.. 90
لوط نبيّ الله 91
ضيف لوط - عليه السلام - 93
في بيت لوط - عليه السلام - 99
النهاية.. 102
وبعد..... 104
الهوامش 107

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

خُلق آدم من تراب .. وخُلقَت المرأة من الرجل .. فهي سكنه .. ونصفه الّذي تستمرّ به الحياة .. وشريكه في ما جعل الله بينهما من مودّة ورحمة ..

و إنّه يَغلب على كلّ منهما التفكير في الأصل الذي منه خُلق ..

فأمّا المرأة - الّتي خُلق أصلها من الرجل - فيغلب عليها التفكير فيه لشعورها بأنّه أصلها الّذي ينبغي أن تعود إليه ؛ فهي تريد أن تستبدّ به حتى لا تشاركها فيه امرأة أخرى ..

وأمّا الرجل - الّذي خُلق أصله من تراب - فيغلب عليه التفكير في الأرض ؛ يضرب فيها .. ويمشي في مناكبها - طالبًا مالاً .. أو علمًا .. أو قرارًا .. أو ما إلى ذلك ... - ، ولكنّه يطلب المرأة لشعوره بمدى حاجته الشديدة إلى أن يُتمّ بها نقصَه ..

فميلُ كلّ منهما إلى الآخر جبلةٌ ، لولاها لَنَفَر كلٌّ منهما من صاحبه نفورًا ، وذلك لشدّة الصوارف بينهما .. فلكلّ منهما نمطه في التفكير .. ولكلّ منهما طبيعته .. وعيوبه - أيضًا - ..

ومَثَلُ المشاعر كالكائن الحيّ ؛ يبدأ صغيرًا ضعيفًا ، فينمو شيئًا فشيئًا - إذا توفّرتْ لذلك شروطُه ، وانتفتْ عنه موانعُه - حتّى يبْلغ ذلك الحيُّ أشُدَّه ؛ كذلك الأمر بين الرجل والمرأة ؛ تراهما - وقد جَمع بينهما عَقد وزواج ، وما أكثر ما يكون ذلك على غير سابق معرفة بينهما ، ولا مَوَدّة - ، فإنْ أُدِمَ بينهما رُزقَا المودّة - تنمو مع الأيّام - حتّى تَبْلُغ المَبْلَغ الّذي قُدِّر لها ..

ثمّ .. حتّى و إن بَلِيَتْ تلك المودّةُ فَعَادةً ما تظلّ الرحمة قائمة بينهما حتّى يَهلك أحدُهما ..

فإن انتكستْ فطرةُ الإنسان ، ومال إلى جنسه فبطن الأرض خير له من ظهرها .. و إن امتُهنتْ كرامتُه ، واختلّ ميزانُ جبلته فلا معنى لحياته ..

ولا يميل الإنسان إلى جنسه إلا إن تشوّهتْ فطرتُه تشوّهًا ، وغلبتْ على جبلته تلك النوازع البهيمية الطاغية في بعض النفوس البشرية ؛ فينسى نفسَه حتّى يغدو محتاجًا إلى من يُذكّره بشناعة ما تنفر منه كثيرٌ من البهائم - بغريزتها - ، ويستنكف الحرُّ أن يفكر فيه - حتى - ، فما بالك أن يأتيه !!

كلاّ ! بل هما جنسان فقط - ذكر .. وأنثى .. -

رجل .. وامرأة .. لا غير .

***

أفتّش عن امرأة ..

هذه رسالةٌ كَتبْتُ أصلَها أيّام شبابي وعزوبتي ،قبل أن يغنيني الله من فضله .. وهي لسانُ حالِ أولئك الّذين لا يجدون نكاحًا - ولا سيما الشباب منهم - وما أكثرهم ، اليوم - ..

---*---

في الإنسان صَبْوَة .. وفي الشباب نَزْوَة .. وفي نفسي أشياء .. وفي يَراعي - اليوم - جُموح .. ومِن حقِّ كلّ ذي قلم أن يخالف - أحيانًا - ما دأب على الكتابة فيه ؛ فليس مِن عادتي أن أكتب عن نفسي - في ما أنشره للناس - ، ولكنّني - إن شاء الله - أفعل - هذه المرّة - ..

إنّه مِن الظلم أن يظلّ حبلي غير ممتوت إلى حبل غيري ..!

أمَا - إلى الحلال - مِن سبيل ..!؟

أفأظلّ أخوض غِمار الحياة - هكذا ؛ بشطر نفس .. وبشقّ جسد .. وبفؤاد محترِق ودامٍ..- !؟

أنّى لي بحظّ في فؤاد امرأة صالحة تتّخذني بعلاً لها - على عُجَري وبُجَري - ؟

---*---

أفتّش عن امرأة ..

أفتّش عن امرأة تقيّة .. حييّة .. زكيّة .. ذكيّة .. لا يُسمع حديثها إلا همسًا .. ولا تزيدني - إن جالستُها - إلاّ أنسًا .. إن غاضبتها صمتتْ .. وإن كلّمتها أنصتتْ .. حازمة حاسمة .. لا تقتحمها العين من سذاجة .. ولا يَشْنَؤها النظر مِن عَرَامة .. وَدُودٌ عَؤود .. هَشوش بَشوش .. حسَنة السَّمْت والدَّلّ ، زينة النساء - إن نطقتْ - .. وأجمل منها - إن صمتتْ - .. إن رأت - من عيبي - سَتَرَتْ .. أو شَظَفًا - في عيشنا - صَبَرَتْ .. في إنفاقنا مقتصِدة .. وفي بيتها مُدَبِّرة .. لِسِرّنا حافظة .. وعمّا لا يَعنيها معرِضة .. قاصرةُ الطرف .. طيّبة العَرف .. كريمة الأصل ..

أفتّش عن امرأة تغسل لباسي .. وتطبخ طعامي .. وتؤنس منامي .. تَسُرّني بأحاديثها .. وتهدهدني بأحاسيسها .. وتحدوني بأهازيجها .. يمين - لنفسي - وعضد .. ودعامة وسند .. إن مرضْتُ مرضَتْ .. وإن أَرِقتُ سهرتْ .. غسولُ رَيْنٍ .. وقُرّةُ عين .. تؤْنس وحدتي .. وتزيل وحشتي .. وتبدّد ظُلْمتي .. تمحو عنّي الحزن - إن حزنتُ - .. وتلتمس لي العذر - إن عنها انشغلتُ - .. إن غبتُ عنها افتقدتني .. وإن حضرتُ إليها اكتنفتني ..

سكن .. ومودّة .. ورحمة ..

أفتّش عن امرأة تكون لولدنا أُمًّا رَؤومًا - في قصد - ، بعيدة النظر في ما يُصلحه .. فنمضي به - في حرص ، وعناية - إلى ما نريد له من الهداية .. وبُعْدِ الغاية ..

---*---

أَلَا وإنّه قد أتى عليّ زمان كنتُ أنعى فيه على المحبّين حبَّهم الآثم .. وعلى المتغزّلين غَزَلَهم الماجِن .. فلم أَرْعَوِ عن هذا الإنكار - مُكْرَهًا ، غير مُقِرّ - إلّا مِن بعدما أثخنَتْني سهامُ رائشة .. - طائشة .. وغير طائشة - ..! مِن قوسِ فتنةٍ جامحة .. رامحة .. تمشي على رجلين - وأنا شابّ عَزَبٌ - ؛ أضعفتْ إيماني - مِن سعة انتشارها .. وشدّة بأسها .. - ، وإذا بنفسي تسلك مسلكًا ما سلكتْه - مِن قَبْل - ؛ تَتُوق .. وتتمنّى .. ولربما تغزّلتُ - أحيانًا - غزَلاً عفيفًا بكلمات أخطّها لنفسي ، وما أكاد أطْلع عليها - من الناس - غيري .. حتى كأنّ نفسي - هذه - ليست بنفسي الّتي كنتُ أعرفها .. وعهدي بها أنّها قد كانت - إلى وقت غير بعيد - لا تَلِين لِصُروف الأيام - ولو كان في ذلك خروج روحي- ، ولا تلتفتُ إلى لغو الكلام ، بل تأخذ الأمور بمأخذ الجد .. فما شأنها الآن ؟

ولكنّها حاجة الإنسان إلى نصف يكمّله .. فهذا بعضُ ما تقضي به الجبلة - التي لو خالفها بَشَرٌ لمَا كان إنسانًا سويًّا - ..

أمُرّ بفتنة النساء فأستمسك .. فأتجلّد .. فأُعرضُ كأنّني لم أر شيئًا .. وأنا قد رأيتُ ما رأيتُ ، فتألّمتُ .. ولكنّني كتمتُ .. فعففتُ .. فغضضتُ بصري .. فمضيتُ .. والله يعلم كم أكابد الشدائد .. وأتجرّع المرائر في سبيل أن أظلّ عفيفًا ..

وما لي لا أكابد وأتجرّع والإنسان هو الانسان وإن بلغ - من الحزم - مبلغًا لا مزيد له عليه فإنه يظلّ - أبدًا - بشرًا ضعيفًا ؛ لا يستطيع أن يتجرّد من بشريته ، ولا أن ينسلخ من طبيعته ..

ثم إنّ ما يضيّق علينا أمرَنا - هذا - أنّنا في مجتمع لا يَرحم ؛ يحكم بالظِّنّة .. ويرمي التهمةَ بالشبهةِ .. و إنّ أحدنا - و إن كان شابًّا يرى ما لا صبر له عليه ؛ فهو يخشى أن يخالف شيئًا من دينه ، وعُرفِ مجتمعه ، في هذا - لَيُؤْثِر أن يتمزّق كَبْتًا ، ويهلك كَمَدًا على أن يُتّهم في نفسه ، أو يُرمى في عرضه بأدنى شبهة ..

كذلك هي حياتُنا ؛ جبلةٌ تَدفع .. وقِلّةُ ذاتِ اليدِ تَمْنع .. وفتنة تَقمع .. ومجتمعٌ لِزَلاّت البشر يتتبّع .. ، وأنا على هذا الوضع عُمُرًا ، حتّى أدركتني - أخيرًا - بشريّتي وضعفي .. وفي الصمت حتفي .. فما أصنع !؟

أَلَا و إنّه لا سكينة في حياة الرجل إن لم تكن - في دنياه - زوج صالحة ..

أفأطوي زهرة شبابي - هكذا - وحيدًا ؛ كأنّني وَتَدٌ - في الأرض - ، أو حَجر ؛ ما يكادان يأوي إليهما بشر !؟

كلاّ - إن شاء الله - ! ولكنّ قلّة ذات اليد - ومثل ما قد سطرتُ - حالت بيننا وبين ما نشتهي ، فإلى الله نشتكي ..

ومن العجائب - والعجائب جمّة - * قُرب السبيل ، وما إليه وصول !!

كذلك تفعل العزوبة بضحاياها ..

ثمّ .. ماذا بعد ..!!؟

***

الزوجة الثانية ..

(مأساة من الواقع ...)

ملخّص هذه المأساة أن إمامًا اضطرّته الحياة إلى أن يتزوّج زواجًا غير سويّ .. لم يستطع أن يندمج في ذلك الزواج ، فوقع بين خيارين ؛ إمّا أن يجمع بين زوجتين، و إمّا أن ينفصل عن أم ولده فيشرّد ولده منها قبل أن يوفّيها حظَّها من كلّ عذر لها عنده ..

ولربما أتى على نفسه - أيضًا - بما هو شرّ مِن ذلك ...

وقد كان - مِن أمْرِه - ما كان ...

مأساة .. وأيّ مأساة ..!

هي واقعيّة تمامًا .. وقد عرفتُ صاحبها عن كَثَب ..

كيف انتهت هذه المأساة !؟

لا تعليق .

ولعلّك واجد جوابًا بين هذه السطور...

---*---

وكنتُ قد استأذنتُ الرجل في أن أعيد صياغة هذه المأساة بقلمي، وأن أنشرها للقارئين - إن استطعتُ - ؛ تعميمًا للنفع بها ، على ألاّ أسمّي صاحبها ، ولا أصفه بما يدلّ عليه مَن يَعْرفه ..

إذ قال لي ذلك الإمام : يسألني بعض الناس - بارتياب - عمّا يحملني على السعي في أن اتّخذ زوجتين .. وكأنّني - بهذا - من الجانين !

إنّني مِن ضحايا الطلاق .. وقد لبثتُ مدّة طويلة أبيتُ في المسجد الّذي أعمل فيه ، وألتمس امرأة أتزوّجها ؛ فتسدّ ما بنا من فراغ عاطفيّ رهيب ، وتأوي إلينا .. (1) فإمّا أن تكون ذات مسكن ، أو - على الأقلّ - عاملة ؛ لتتولّى هي - بِراتبها - أمر الإيجار ، وأتولّى أنا أمر الإنفاق .. فما زلتُ على ذلك - تلك المدّة كلّها - حتّى كاد يستبدّ بي اليأس القاتل مِن أن أدرك حاجتي ..

وكان من أمري - في ذلك - أنّني عهدتُ بحاجتي - تلك - إلى أناس يسعون معي فيها .. وكان منهم رجل ..

رام نفعًا ، فضرّ من غير قصد * ومن البرّ ما يكون عقوقًا !

اجتهد لي هذا الرجل في أن يبلّغني حاجتي .. ووقع اختياره لي على إحدى قريباته ؛ أساكنها - في بيت أهلها - إلى أجل غير مسمّى .. وزكّاها لي ، فوافقتُ من فوري .. كنتُ أعلم أنّ ممّا يقدح في قوامة الرجل ، ويُضيّق عليه عَطَنَ أمره ونهيه أن يساكن امرأته في بيتها ، أو في بيت أهلها .. ولكن ماذا أفعل !؟ والمبيت - ولو في المسجد - إذا طال على الإنسان غدا الأمر عليه عسيرًا ، ولا سيما أنّني تصبّرت - مع ذلك ، طويلاً - على هذا العنت الشديد ، وهذا الفراغ العاطفيّ الرهيب حتّى خشيتُ على نفسي .. ثمّ جاءتني هذه الفرصة تسعى ؛ فكفاني اللّهُ أمرَ استئجار البيت ، وهَمَّ عملِ

المرأة بزوج مزكّاة قارّة في بيت أهلها ؛ تتفرّغ لي ، ولولدها وبيتها - تفرّغًا تامًّا - .. أفأردّ هذه الفرصة - هكذا - !؟

إنّي خفتُ - إن فعلتُ - أن أصدّ على نفسي رزقًا قد ساقه الله إليّ ، ثمّ لا يأتيني رزقٌ خير من هذا ، ولا مثله أبدًا .. فاستخرتُ الله في الإقدام على هذا الزواج .. ولكنّني لم أسأل صاحبنا عمّا كان يجب عليّ أن أسأل عنه - في شأن هذه المرأة - .. وما علمتُ عليها منه إلاّ أنّها امرأة صالحة - برأيه - ، وأنّها قريبته ، وأنّها أكبر منّي قليلاً ، وأنّ أباها مات من قريب ..

وخَفي عنّي - يومئذ ، لِمَا كنتُ فيه ، ولتزكية ذلك الرجلِ تلك المرأةَ - أنّها قد تكون من النسوة اللاّتي يستجزن التنصّل ممّا شئن من حقّ البعل والولد والبيت ما دام ذلك الزوج المسكين مُساكِنًا إيّاها في بيتها ، أو في بيت أهلها ..

كما غاب عنّي - يومئذ ، كذلك - أنّ الناس مختلفون في فهم معنى المرأة الصالحة - زوجة ، وأمًّا ، وربّة بيت - ، وأنّ المنشأ والأعراف يؤثّران في الطباع - فأنا من الجنوب ، وهذه امرأة من الشمال - ..

وعزب عنّي - أخرى ، يومئذ - أنّ فاقد الشيء لا يعطيه ؛ فقدْ نُكِبَ هذا الرجلُ - الساعي لي - نُكِبَ في زواجه مرّتين ؛ تزوّج امرأة ، ثمّ طلّقها .. وتزوّج أخرى وطلّقها، أو انخلعتْ منه .. ويبدو أنّه و الثالثة على حدّ السَّنام المُذَلَّق .. كلّ ذلك لم أضعه في حِسْباني ..

ويسّر الله لنا أمر هذا الزواج .. في البداية كانت الصلة بيني وبين هذه المرأة على ما أحبّ ، مع ما كان يكون منها - أحيانًا - .. فكنتُ أعجب لبعض ذلك ، ولكنّني كنتُ أعلّل نفسي - في كلّ مرّة - بأنّ هذه هي البداية ، وبأنّ الكمال مطلب عزيز المنال ، وبأنْ عسى أن تستقيم لنا الأمور - مع الأيّام - ، ولا سيما أنّني لم أكن - يومئذ - قد ألممتُ - بعدُ - بأكثر شأن هذه المرأة ..

وكانت حماتي - رحمها الله - عجوزًا يبدو عليها أثر الصلاح ؛ فقد أتاني أنّها كثيرًا ما كانت تَحْدِب عليّ ، وتوصي ابنتها بي حسنًا .. وأغلب الظنّ أنّها كانت - مع ذلك - تسدّدها في كثير من أمر زواجنا وترشدها ؛ فكفتها - بذلك - ما كفتها .. وسَترتْ عليها عيوبًا .. وإنّما غلب عليّ هذا الظنّ لأنّ تلك الحماة لمّا ماتت بعد عام من زواجنا - تقريبًا ، رحمها الله - ، وخلت الدارُ لمن بعدها طفقتْ الأيام تبدي لي - على عجل - ما كان خافيًا عليّ مِن أمْر هذه القرينة ؛ فإذا هي امرأة اجتمعتْ فيها الخيبة من أوجهها الثلاثة - زوج حمقاء .. وربة بيت خرقاء .. ووضعتْ لنا ولدًا فإذا هي أمّ قاسية جهلاء ، أيضًا - !

في أول الأمر كنت أتجشّم عناء الصبر عليها ؛ وذلك لمقامي في بيت أهلها .. ولذكرى أمّها الراحلة ، وإحسانها إليّ .. ولتقديري أنّ هذه القرينة قد تحتاج إلى أيام حتّى تتعلم الاعتماد على نفسها ، وتعتاد تسيير الأمور ..

ومضتْ الأيام ثقيلة وئيدة ولم تتحسّن الحال .. ثمّ مضى الشهر تلو الشهر - وكأنّ ذلك الدهر - ! ولم تصلح الأمورُ .. حتى يئستُ .. وطفق يَهُون عليّ ما لاقيتُ قبل أن

أتزوّج هذه المرأة أمام ما ألاقيه منها ؛ سبعُ علل اجتمعتْ عليّ من هذه الزوج اضطرّتني - أخيرًا - إلى أن أَشْرَع في التفتيش عمّن تَقبل أن تكون لي زوجًا ثانية ..

فلو كان سهمًا واحدًا لاتّقيته * ولكنّه سهم وثان وثالث !

1- **فأمّا العلّة الأولى بامرأتي** فهي أنّني جرّبتُ عليها تعمّد الكذب - غير مرّة - .. وشرٌّ من ذلك أنّها تكذب - أحيانًا - أمام ولدي فتفسد عليّ - بذلك - تأديبه ، وتسيء إليّ فيه ..

فهل يَبْلغ البنيانُ يومًا تمامَه * إذا كنتَ تبنيه ، وغيرك يهدم ؟!

وأنت تعلم أنّ الصدق - وهو قرين الثقة - هما روح الزواج .. وأنّ الصدق هو من خير الأعوان على تربية الأولاد .. وهو صورة من صور الشجاعة .. وصِمَام أمان يركن إليه الإنسان .. وأنّ الكذب خُلُقٌ لَقِيطٌ - نَشَازٌ عن الفطرة السّويّة - .. وهو من شرّ ما يفسدها .. وهو صورة من صور الجبن ، وأوّل كثير من الشرّ .. و إنّه لا معنى لحياة لا روح فيها ، ولا خير في زواج غدا قتيل اللقطاء ، ولا في فطرة شوّهها الكذب .. وكما أنّ الجود منقبة تكاد - عند العرب - تكفّر المثالب كلّها فكذلك الكذب هو مثلبة تكاد تكفر المناقبَ كلّها .. وما ساد كاذبٌ قومًا - قَطّ - وفيهم شريفٌ يَنتخي ..

لا يكذب المرء إلاّ من مهانته * أو فعلة السوء ، أو من قلّة الأدب !

ولقد وعظتُ هذه المرأة في الصدق - غير مرّة - ، وزجرتها في الكذب فلا اتّعظتْ ولا انزجرَتْ .. ولو أنّني كنتُ أوذي الصادقين معي - لِصِدْقهم - لجعلتُ الكاذب عليّ -

اتّقاء شرّي - في عُذرٍ مِنّي ، ولَلُمتُ نفسي .. بل إنْ يزيد الكاذبَ كَذِبُه - عندي - إلاّ مقتًا ، وهوانًا ..

لها ألْف وجه بعدما ضاع وجهها * فلم نعد ندري أيّ وجه نصدّق!

2- **وأمّا علّتها الثانية** فسُوء ظنّها بي - في كثير ممّا أقول ، أو أفعل ، دون تحقّق - .. حتّى بلغ بها الأمر أن تقذفني في عِرضي - دون بيّنة - ؛ تزعم أنّني أحبّ فلانة - ذلك الحبّ الآثم - ! وفلانة - هذه - امرأةٌ سيّئة الخُلق .. قليلة الحياء ، وهي في عصمة رجل من قربى امرأتي ..! سبحان الله ! أفيسيء بي الظنّ إنسان كان من المفترض أن يكون أقرب الناس إليّ - بعد والديّ - (**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**) (2) فإذا هو يَقْذِف عِرضي - بنحو ما قد ذكرتُ لك - ؛ وأنا إمام ، ورجل مُرهف الحسّ !؟ فأنّى- إذًا - أستطيع أن أرهن عمري بالاقتصار على العيش مع إنسان لا يثق بي ، ولا أثق به - لكذبه - ، وقد رماني بما لا أعلم أنّ بَشرًا رماني به - قطّ - !؟

ومضت خمس سنين ونيّف ، وما استطاعت الأيامُ - بحمد الله - أن تُثبت شيئًا ممّا رمتني به هذه المرأة ، ولا ممّا ظلّت - هذه المدّة كلّها - تسيء بي الظنّ فيه .. ولعلّها تدرك - تمامًا - أنّني بريء من كثير ممّا هي ظالمة إيّاي به .. بَيْدَ أنّ حظّ نفسها هو ما يظلّ يحملها على أن تستنكف أن تقرّ بذلك ، أو تستعتب .. أو لعلّها تستحيي أن تفعل ذلك ! ولكن أيّ خير في حياء يَدَعُ المظلمة - بِرُمّتها - قائمة في نفس المظلوم تحزّ فؤاده حزًا حتى تكاد تقتله !؟ لِتظلّ دارُ لقمان على حالها ؛ سوء ظنّ - دون تحقّق - .. وعِرْضٌ مقذوف - دون بيّنة - .. والله المستعان ..

لقد كان في استطاعة هذه المرأة أن تراقبني دون أن أفطن لذلك منها ؛ فإنْ ثبت لديها شيء ممّا رمتني به افتضحتُ - دون أن أحتاط لنفسي منها - .. و إلاّ لَمْ تؤذني - ظلمًا - فتبوء بإثمي ، وتفسد - على نفسها - قلبي ، وتُوغر صدري .. وما يؤمّنها - إذًا - من غدري ..!؟

3- **وأمّا علّتها الثالثة** فكثرة مماراتها إياي - ولو بالباطل - ، واستنكافها عن الاعتذار - إذا أساءتْ إليّ ، أو قصّرتْ في حقّي ، ولا تقرّ بذلك ، حتّى ، مثل ما قد قلتُ لك - ، بل إنّها تبرّر كلّ ما يكون منها ؛ تحسب نفسها - ربما - أنّها مَلَكٌ عزيز لا يأتيه الخطأ من بين يديه ، ولا من خلفه - مُنزّهٌ من ربّ العالمين - ، وأنّها - من أجل هذا - لا ينبغي لمن كان في مِثل مكانتها أن يقرّ بخطأ ، أو يعترف بإساءة ؛ فذلك - بظنّها - ممّا ينتقص من قدرها ، ويحطّ من منزلتها !

و إنّه لا يعزب عنك ما في كثرة المراء من إيغار الصدور ، ولا أنّ تبرير الإساءة - زيادةً على ما في ذلك من تزكية للنفس ، وهذا من أغْيَظ ما يكون - يُسقط الحبيب من قلب حبيبه - ولو بعد حين - ، ولربما أحال تلك المودّة عداوةً لَدَّاءَ .. وأنّ أولى خطوات العلاج الإقرارُ بالدّاء - ابتداء - ..

فأنّى لإنسان - إذًا - أن تسكن محبّتُه القلوبَ ما دام يستنكف أن يقرّ للآخرين بما يكون منه - في حقّهم - من إساءة !؟

فالمبادرة إلى الاعتذار الصادق - إذًا ؛ وهو الخطوةُ الثالثة في سبيل التكفير عن الإساءة ، وتصويبِ الخطأ ؛ بعد خطوتيْ الندم والإقرار- ذلك الاعتذارُ هو ممّا يصقل ما يجد الإنسان - في نفسه - ممّن ظلمه ..

وأمّا الجدل البيزنطيّ ، وتبريرُ الخطأ ، والاستنكافُ عن الاعتذار فإنْ يزيدُ على أن يوغر الصدور ، ويشحن القلوب - مثل ما قد ذكرتُ لك - .. إنّه لا يُبطل حقًّا ، ولا يُحقّ باطلاً ، ولا يغيّر رأي المظلوم في نفسه أنّه مظلوم - حقًّا - ، حتّى ولو كان ذلك المجادِلُ المبرِّرُ المُكابِرُ لَسِنًا يَبُذّ القائلين ..

كلاّ ! بل إنّ في تلك المجادلة ظلمًا للمظلوم مِنْ وجهين : مِنْ حيث وقوع تلك المظلمة عليه - أصلاً - ، ومن حيث ما يقع فيه ذلك المجادِل مِن غمْطه حقَّ مَن ظَلَمَ - في الاعتذار إليه - ، حتّى إنّ كثيرًا ما يقع في نفس ذلك المظلوم أنّه لدى مُجادِلِه - وبَدَلاً من أن يعتذر إليه - قد يكون مُتَّهَمًا - أيضًا - على حدّ قول القائل : (**رمتني بدائها وانسلّت**) ! وهذا - أيضًا - مِنْ أغْيَظ ما يكون ..

قال صديقي : فَلَشَدَّ ما كنتُ أسائل نفسي - في غيظ وسدم - : لِمَ لا تعتذر إليّ هذه المرأة اعتذارًا صريحًا ، أو تُقرّ بخطئها - على الأقلّ - مثل ما أصارحها الاعتذار - إن ظلمْتُها - !؟ أتحسب نفسها أنّها أعزّ منّي وأَقْدَرُ - وأنا الرجل - !؟ ألا تقدّر مغابّ ما تصنع !؟

بلى ! إنّها تدرك ذلك تمامًا - في ما يبدو - ، ولكن غلبتْها العزّة بالإثم ، فضعفتْ أمام ما يقضي به وازعُ الهوى ..

أَمَا إنّني لو كنتُ مِن الّذين يستذلّون مَن يعتذرون إليهم لَعذرتُ هذه المرأة في ما تأتي مِنْ تركها الاعتذار إليّ ، ومجادلتها إيّاي - ولو بالباطل - لِتَدْحَضَ - بذلك - ما أحاججها به مِن حُجّة - اتّقاء شرّي - ؛ فذلك أدنى ما أستحقّ .. بيْد أنّ خُلُقي يأبى عليّ ذلك ؛ إنّني أعُدّ الاعتذارَ عن الإساءة صورةً من صُوَر الشجاعة ، وتركَ الاعتذار - دون عذر وجيه - لونًا من ألوان الجبن ؛ فأيّما إنسان اعتذر إليّ - صادقًا - من إساءة كانت منه في حقّي إلاّ وأكبرتُ منه ذلك الاعتذار ؛ لكونه غلب نفسه ، وقهر هواه ، وأرغم أنف شيطانه ..

4- **وأمّا العلّة الرابعة بهذه المرأة** فذلك أنّها لا تراعي مواضع عيني وأنفي منها ؛ فلا تُصلح مِن شَكْلِها إلاّ لمامًا ؛ إن فعلتْ ذلك - يومًا - أهملتْ نفسها - أيّامًا - ، ولا تنظّف بدنها إلا بين الحين والحين ، حتّى إنّه ليأتي عليها الأسبوع والأسبوع والأسبوع لا تستحمّ - إلاّ أن تغتسل من الجنابة - حتّى ينبعث منها ، ومن ثوبها ما يُزكم الأنوف ، ويقزّز النفوس !! ومن عجب أنّني إذا قلتُ لها - في ذلك - انطلقتْ - على مجرى عادتها - تجادل ؛ تحسب أنّني مُشْتَطٌّ في مطلبي ، وأنّني أتتبّع عوراتها ، وأنّ التزيّن هو بعض طيش الشباب ..!

ويْحها ! أفليس من حقّي عليها - وأنا شاب - أن تتزيّن لي وتتطيّب ، وأن أرى منها - في الحلال - ما غضضتُ عنه بصري من الحرام !؟

أوَليس الأهْون مِن أن يُستجرد الرجل من جبلّته - بما يشبه الرهبانيّة - أن تساير امرأتُه ما جُبلتْ عليه من حُبّ التطهّر والتطيّب والتزيّن - مراعاة لأنوثتها .. وحفظًا لبعلها .. وانقيادًا لدينها .. - !؟

بلى ! فالأصل في حُكم تزيّن المرأة لزوجها أنّ ذلك يُستحبّ لها - شرعًا - ، فإنْ أَمَر به الزوجُ وجَبَ عليها أن تأتمر بأمره - جهدها - ..

وأمّا عن التطيّب والتطهّر فحتّى الملائكة تتأذّى ممّا يتأذّى به البشر .. و إنّ الزوج لَأَوْلى - حتّى من الملائكة أنفسها - بأن تكفّ عنه امرأته ما يؤذيه منها ..

فهل يُعذل الرجل - إذًا - ، أم يُعذر إنْ طَرَد امرأتَه من قلبه - ابتداءً - كما يُطرد مِن المسجدِ - ذلك - الّذي يدخله لصلاة الجماعة فيؤذي الناس ببَخَره ؟

أو حالَ البعلُ بين حبّ امرأته وفؤاده - مثل ما يُحال بين المصلّي والصلاةِ في جماعة - إن أكل بصلاً أو ثومًا أو كرّاثًا ..؟

أو غدا الزوجُ المسكينُ - أخيرًا - مثل ما أغدو - أنا الآن - ألتمس لهذا الفؤاد - فؤادي الجريح - ساكنًا جديدًا .. !؟

ألا و إنّ الشيب هو شيب القلب - كما قيل - .. و إنّ المرأة هي الّتي تستطيع أن تجعل من صورتها - في عين زوجها - شابّة يافعة يانعة - ولو غدت في طور الكهولة - .. أو عجوزًا مدبرة تقتحمها عينُه - ولو كانت في عمر الزهور - ..

5- <u>وأمّا العلّة الخامسة بامرأتي</u> فما يغلب عليها من التجهّم والاكتئاب - دون أن تذكر لذلك سببًا وجيهًا ؛ حتّى أعالج الأمر - إن استطعتُ - ، أو أَعْذُرَ فيها - .. وكذلك

شدّتها على ولدنا - في أحيان كثيرة - دون مقتضى تربويّ يقضي بذلك ، مع تركها الاعتناء بطهارة بدن الولد ، ونظافة ثوبه - كما ينبغي - ! قسوةٌ .. لم أجد لأمّ ما يبرّرها ! ما هو إلاّ أن أدخل عليها الباب حتّى أشعر - غالبًا - وكأنّني قد دخلتُ بيتَ عزاء ..! بيتًا يحتاج صاحبه إلى عزاء من يعزّيه فيه .. ! وأنت تعلم ضرورة الابتسامة ، والكلمة الطيّبة في استقرار الزواج ، وأنّ الإحسان إلى الولد إحسان إلى والده ، والإساءة إلى الصبيّ إساءة إلى أبيه .. فكنتُ - على ذلك كلّه - أقول لها في هذا - راجيًا إيّاها أن ترفق بولدنا ، ومستجديًا إياها الابتسامة الصادقة ، والكلمة الطيّبة تخرجان من فمها سجيّة سخيّة - دون ما تكلّف ، ولا تسوّل ، تستقبلني بهما ، ولا سيما إذا ما عدتُ إليها من عملي - ؛ مع أنّ استجداءَ الرجلِ المرأةَ مثلَ هذه الأمور يضيّع قيمتها ، ويفقدها معناها ، ويجرّع الرجل مرارة الهوان عذابًا .. ولكنّها الضريبة الّتي لا مناص لرجل مثلي من أن يدفعها ممّا تقضي به الرجولة من عزّة النفس في سبيل أن يَشعُر هو ، ويُشعِر امرأة هي في عصمته - وذلك الطبع هو طبعها - ؛ يُشعرها بأنّه يريد أن يعاملها معاملة القرينة القريبة ، لا معاملة أَمَة - خرقاء جلفاء - ..

فلمّا كنتُ أستجدي منها ذلك كانت تنظر إليّ - في استغراب ، نظر المستهزئ الساخر - ، وتقول بأنّ هذا هو خُلُقها ، وأنّها لا تملك أن تغيّره ، ولا أن تعدّل منه !! حتّى يئسْتُ من ذلك ..

6- <u>وأمّا علّتها السادسة</u> فكونها امرأة خرقاء ؛ ما تكاد تحسن من عمل البيت شيئًا - كعبد السوء ؛ أينما توجّهه لا يأت بخير - ، ولا تريد أن تتعلّم - حتى - ..! وكثيرًا ما

أراها تتعامل بغباء مع ما ينبغي للمرأة أن تتعامل معه بعقل .. قذرة ؛ رأيتُها - غير مرّة - وقد أصاب طرفُ كُمٍّ لها واسعٌ ما في القِدْر - إذ تحرّكها ، أو تغرف منها - !! وما أكثر ما يقع من شَعْرها في القِدْر؛ لكونها تباشر طبخ الطعام دون أن تخمّر رأسها !! فكثيرًا ما أجد - مِن شَعْرها - في طعامي - شَعْرَة أو أكثر ، وأنا رجل عيّاف - ، فحينًا أستمرّ أَطعَمه - لِما بي من الجوع - وقد أصابني من الغثيان ما الله به عليم .. وحينًا أدَعُ الطعام - وقد انسدّتْ شهيّتي - .. وأحيانًا آخذ الشَّعْرة فَأُرِيَها صاحبتها قائلاً لها - في سدم وتهكّم - : حظّنا هذا اليوم !

وهي - بعد ذلك - امرأة عاجزة .. كسول .. فنحن - ومثل ما قلتُ لك ، آنفًا - ننزل في حُجْرةٍ من بيت أهلها - وذلك لا يُبرّئها من الإساءة ، ولا يبرّر لها الخطأ ؛ فالزواج هو الزواج - ؛ فكثيرًا ما كانت هذه المرأة تُهْمل ترتيب تلك الحجرة إهمالاً مبينًا ؛ متعلّلة إمّا بالتعب ، و إمّا بالمرض - ، و إن شئتَ فقل : هو التمارض - غالبًا - ، أو هو - بتعبير أحجى - : داء العجز والكسل .. فكنتُ أقول لها : هذه حجرة واحدة وقد أعياك أمرها ! فكيف إن فتح الله علينا ببيت واسع !؟ فلربما نشّطها هذا السؤال لضبط الأمور يومًا ، أو أيّامًا معدودة .. ولكنّها تعود - في كلّ مرة - إلى سيرتها الأولى .. ومن أجل ذلك كانت تضيع منّا أشياء ..

7- وهذه العلّة السابعة لم يشافهني بها صاحبُ هذه المأساة - حياء - ، بيد أنّه لـمّا استأذنْتُه في أن أعيد صياغة مأساته - هذه - بقلمي ، وأنشرها - إن استطعتُ - رأى

أن يرسل إليّ بهذه العلّة السابعة حتّى تستوفي هذه المأساة حقّها من العرض - من جميع أوْجُهِها - ..

قال الرجل - في معنى ما سطر لي - : وأمّا العلّة السابعة فتثاقل هذه المرأة وفتورها متى ما أردتُها لحاجتي .. وتململها - من ذلك - تململاً قد يبلغ حدّ الضجر .. ولا جرم أنّ ذلك - ولا سيما إن تكرَّر - ممّا يكسر خاطر الرجل ، ويصدّه .. ففي الإنسان عزّة..

قال : وما أذكر أنّني سمعتُ منها - على مدار خمس سنين ونيّف - همسةً ممّا يحبّ الرجل أن يسمع من المرأة - إذا خلا بها - .. ولا سألَتْنا - قطّ - عمّا لها عندنا .. ولا باحتْ لنا بما قد تجده فينا ممّا قد يمنعها من أن تكون على ما نحبّ ؛ حتّى أجتهد في علاج ما تذكر لي من علّة - فما أبرّئ نفسي - .. فكنتُ أتساءل - في حيرة وأسى - : أكلّ بنات حوّاء في هذا سواء - حجارة في مسالِيخ البشر - !؟

فمالنا - إذًا - نجد المرأة قد ترخي العنان لنزواتها الآثمة حتّى تجني على نفسها قبل أن تجني على غيرها !؟ وأخرى تجاهر - دون حياء - بمغازلتها الخلاّن ، واستغزالها إياهم - في إسفاف مثير - !؟ مالنا قد نرى من المرأة ذلك كلّه !؟ لا جرم - إذًا - أنّها بشر مثل الرجل ؛ تحبّ منه ما يحبّ منها .. وتميل إليه مثل ما يميل إليها ، أو أشدّ - لكونها أحوج إليه من حاجته إليها - ؛ ذلك بأنّ الرجل خُلِق من تراب .. والمرأة خُلقتْ من الرجل .. وأنّه - ومثل ما قيل - يغلب على كلّ منهما التفكير في الأصل الذي منه خُلق ؛ يغلب على المرأة التفكير في الرجل لشعورها بأنّه أصلها الّذي ينبغي أن تعود إليه ؛ فهي تريد أن تستبدّ به حتى لا يشاركها فيه امرأة غيرها ..

ويغلب على الرجل التفكير في الأرض ؛ يضرب فيها .. ويمشي في مناكبها ؛ طالبًا مالاً .. أو علمًا .. أو قرارًا ...أو ما إلى ذلك ، ولكنّه يطلب المرأة لشعوره بمدى حاجته الشديدة إلى أن يُتمّ بها نقصَه ..

فما لهذه القرينة - إذًا - تخالف ما جبلتْ الأنثى على حبّه ؛ فتَكْبُتُ عنّي عواطفَها - في قسوة وعناد - ، وتغرس في سبيلي إليها خرط القتاد فتصدُّني - بذلك - عن الحلال !؟ أفليست هذه المرأة أنثى !؟

بلى ! إنّها كذلك - في ما يبدو - ، ولكنها تخالف جبلة الأنثى ؛ وذلك لغير واحد من الاحتمالات :

- إمّا لأنها لا ترى أنّ استجابة المرأة لغريزة زوجها واجبًا شرعيًّا ، ولا حقًّا جبلّيًّا .. بل تراه منّة تمنّ بها عليه ، وفضلاً - إن شاءت منحته إيّاه ، و إن شاءت منعته - ، وأنّ الغزَل الحلال خطيئة على العبد أن يعفّ عن اكتسابها ، ونقيصة تَخْرِم ما ينبغي أن تكون عليه نفوس البشر من النزاهة والكمال ..!! ولا جرم أنّ ذلك كلّه من تلبيس إبليس ؛ فإنّ الأصل في الرجل أنّه - ومثل ما قد قلتُ لك - يحبّ أن يسمع من المرأة تغزّلها به ، وهي أشدّ منه حبًّا لذلك .. فهل يسفّ بقدر رجل - إذًا - أنْ كان يُحبّ أن يسمع من امرأته مثل ذلك التغزّل ، أو بعضه - حلالاً زلالاً - !؟

- و إمّا لأنّ هذه المرأة - ولنقصان عقلها - تَشْعر ، ربما ، بالضعف والهوان أمام قوّة الرجل ؛ فيحملها ذلك الشعور على أن تستضعف زوجها - وهي تراه يُرَضّ رضّ النوى بين سندامها ومطرقة غريزته ، وعزّة نفسه - ..

ومهما يكن من الأمر فهل ألوذ بالحرام - وأنا إمام - استجابةً لغريزة ليس في الإنسان غريزة أشدّ عليه منها ؛ فبذكرها ابتدأ اللّهُ ترتيبَ ما زُيّن للنّاس من حبّ الشهوات (3) .. وبالضعف أمامها نَعَتَ ربُّنا الإنسانَ - في القرآن الكريم - (4) .. وأنا ما تزوّجتُ هذه المرأة - ابتداء - إلاّ فرارًا من الحرام .. وما ظلّ يحملني على أن أقربها - في كلّ مرّة ، على عُجَرها وبُجَرها - إلاّ لأنّني لم يتيسّر لي سبيلٌ - إلى الحلال - سواها !؟ أم هل ألتمسُ الغَزَلَ في بنات الهوى - وأنا أحمل ، في صدري ، كلام الله - !؟ أم أظلّ متصبّرًا - من هذه المرأة - على ذلك العنت كلّه ؛ فحتّى متى - إذًا - !؟

إنّ علّتي أنّني رجل مجبول على حُبّ المثاليّة في شأني كلّه - أعني أنّني أريد الانضباط في كلّ شيء ، بنظامه ، انضباطًا تامًّا - ، والرجل المثاليّ - على ما في ذلك الخُلُق مِن عَنَت ؛ وذلك لمجاوزته بصاحبه حدودَ الاعتدال - ذلك الرجل أشدّ اجتواء للفوضى ، وأشدّ نفورًا من أهلها ..

الرجل المثاليّ يَوَدّ - ممّا يودّ من قرينته - أن تُشعره بحاجتها إليه في كلّ شيء ؛ في نفقته .. في عاطفته .. وفي ما يكون بينهما من أسرار .. ومتى ما شعر هذا الرجل باستغناء امرأته عنه - في شيء من ذلك - ، أو - بجملة أدقّ - متى ما أبدتْ المرأة لهذا الرجل استغناءها عنه في بعض الأمرِ بدأ المسكينُ في فقْد طَعْمِ الزواج مع مِثْلِ هذه المرأة - وذلك على قدْر شعوره باستغنائها عنه - ..

هذا ؛ ولْينظر الإنسانُ إلى زواجه ؛ إنّ زواج البشر آية لهم أنْ خَلَقَ الله لهم من أنفسهم أزواجًا ليسكنوا إليها ، وجعل بينهم مودّة ورحمة ، (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ***) (5) ..

فثلاث منافع للنّاس - إذًا - في آية الزواج ؛ سكينة .. ومودّة .. ورحمة .. - ، لَمْ يَذكر ربُّنا - سبحانه - الرَّفَث - هاهنا ، أعني الفراش - ، مع أنّه من الزواج لَبِمكان ؛ بحُكم إلحاحِ الغريزة في طَلَبه باستمرار - ، فزواج الإنسان يختلف عن تزاوج غيره من الأنعام ، وسائر الدوابّ ، والطير - مرادًا حاضرًا .. وغاية بعيدة .. - ؛ فإنْ رُزِق الإنسان - من زواجه - ذلك الأصل - أعني تلك السكينة والمودّة والرحمة - وَجَدَ لكلّ مُتْعة في زواجه طَعْمَها - المأكل والمشرب والمنكح والمنام - ، وأخَذَ بحظّه - من ذلك كلّه - على قدْر نصيبه من ذلك الأصل ..

ثُمّ يشيخ الإنسان - و إن انقطع ما بينه وبين امرأته من الرفث - يظلّ ما بينهما من تلك السكينة والرحمة قائمة لأنهما الأصل - حتّى و إن بَلِيَتْ تلك المودّة - ..

ولو كان الرفث هو الأصل لَذَهَبَ ما بين الزوجين بانقطاعه ..

وأمّا إن اعتلّ هذا الأصل فإنّ ذلك يؤثّر في طَعْمِ كلّ مُتعة في زواج الإنسان ؛ وذلك على قَدْر ما يُحْرَم هذا المسكين من تلك السكينة والمودّة والرحمة ..

قال صديقي : ذلك قد ذكرتُهُ لك - أيّها الصديق - ممّا ألاقي من هذه المرأة الّتي اجتمعتْ فيها الخيبة من أوجهها الثلاثة - زوجًا .. وأمًّا .. وربّة بيت .. - ..

وما صَبَّرَني على أن ظَلَلْتُ مُمْسكًا بعصمتها - كلّ هذه السنين الّتي قضيناها معًا ، مُعَذَّبًا - بقيّةٌ من مودّة بيني وبينها ، ولا أملٌ في صلاحها .. أبدًا !

إنّ القلوب إذا تنافر ودّها * مثل الزجاجة كَسْرها لا يجبر

ولكن ما صبّرني - على ذلك العنت الشديد - ما قضى الله بيني وبين هذه المرأة مِن ولدٍ أخاف أن يصيبه من القدَر مثْلُ ما أصابني ؛ فيتجرّع من المرارة ما لا قِبَلَ لمِثْلي بأن يرى نفْسَه يتجرّعها مرّتين - مرّة في نفسه ، ومرّة في ولده ؛ أعني أن يعيش ضحيّة طلاق مثل ما عشتُ - .. ولولا ذلك الخوفُ لحسمْتُ أمر هذا الزواج منذ أمد..

ولكن ! أيّنا الجاني على صاحبه ؟ أأنا - إذ كنتُ سببًا في خروج هذا الولد إلى دار الشقاء -..؟ أم هو - إذ ظلّ يمنعني - بما جُبِلْتُ عليه من شَفَقَة الوالد - أن أخلع عن عُنُقي هذا الغلّ القَمِلَ - أعني أمّ هذا الولد - ؛ فلا أطرق بابًا أرى فيه فَرَجي إلاّ وكان هذا الغلّ مُطَوِّقًا عنقي .. ولئن خلعتُ هذا الغلَّ بعد أن يَشِبّ ولدُنا عن الطوق ، ويستغني عنّي فَقَدْ ضاع شبابي - إذًا - .. فيا حسرة على نفسي ..!

من أجل ذلك كلّه رأيتُ أنّ تحمّلي تبعات التعدّد أخفّ عنّي - إلى الآن ، على الأقلّ - مِن تحمّلي تبعات الطلاق .. فلعلّ في الزواج بأخرى خيرًا للأولى ؛ أن تجد لها ضرّة عَنودًا فيحمل ذلك الأولى على أن تحاسب نفْسَها ، وتصلح ما فَسَدَ مِنْ أمْرها .. فإن استقامتْ لنا على ما نحبّ ، و إلاّ فقد نُضطرّ إلى أن نسرّحها سراحًا جميلاً ؛ فمِنَ الظلم بمكان أن نظلّ مقيمين على ما يوجب علينا العدل بين بريئة ومُذْنبة لا أمل لنا في صلاحها .. فلا تزر وازرة وزر أخرى ..

إذا ما الزرع قارنه اصفرار * فليس دواؤه إلاّ الحصاد

وأمّا وَلَدُنا - إذًا - فإنّ له ربًّا يرعاه ؛ فأنا أيضًا - مِن ضحايا الطلاق ، مِثْل ما قلتُ لك آنفًا - .. وأنا اليوم - بحمد الله - إمام .. ووالله ما أردتُ بأمري هذا كلّه إلا العافية ، وأن تستقرّ أموري على وضعٍ صالح فأقضي ما بقي لي مِنْ أيّام - وأنا ، بَعْدُ ، في طوْر الشباب - أقضيها في سكينة ، و إقبال على ما ينفعني ..

---*---

قال صديقي : قد عدتُ إلى سابق عهدي أبيتُ في هذا المسجد الّذي أعمل فيه .. وأمّا بيت أصهاري - وهو البيت الّذي قضيتُ فيه ستّ سنين ، تقريبًا - كانت عليّ عِجافًا شدادًا ؛ كادت تعصف بي - زيادةً على ما لاقيتُ فيها من تلك المرأة – فَقَدِ استحال ذلك البيت - أخيرًا - جحيمًا لا قِبَلَ لمِثْلي باحتمال الإقامة فيه .. وهذا ممّا دعّني إلى أن ألوذ بهذا المسجد أبيت فيه - من جديد - حتّى حين - إن شاء الله - ؛ وحيدًا ، ووطاء غير صالح ، وغطاء مُغْبرّ .. بيد أنّ هذا أهْوَنُ عليّ - على شدّته - من أن أعود إلى ذلك الأتّون اللاّهب الّذي يقال له : بيت الأصهار .. و إن شئتَ فقل : هُوَ بيْت الانصهار .. إنّني إلاّ فعلْتُ خشيتُ أن يخرج الأمر من يدي فأخْسَرَ كلّ شيء .. ومن ينتفع بي - يومئذ - ؟ نفسي ..؟ وَلَدي ..؟ امرأتي ..؟ مَنْ ..؟ لا أحد ..! يوم أقع - بسبب ما أنا فيه - في ما ظللتُ أحاذر طيلة خمس سنين ونيّف ألاّ أقع فيه - أعني الطلاق - ؛ فأشرّد ولدي - دون أن أمنح أمّه تلك الفرصة الأخيرة لعلّ وعسى ، وأَعْذُرَ إلى نفسي اللوّامة - ، فأستقيل من عملي ، فأغادر هذا البلد وحيدًا - ربما مغادرةَ من

لا ينوي العودة إليه أبدا - ؛ أبحث عن مستقَرّ صالح في مكان بعيد .. ولربما أتيتُ على نفسي - إذًا - فضيّعتها ، أو فقدتُ عقلي ، أو وضعتُ حدًّا لحياتي .. ويا لها من نهاية !!

ذلك تأويل ما يُريب بي كثيرًا مِن الناس - أن يكون لي زوجتان - ، فهل أنا - بهذا - من الجانين !؟

---*---

وبعد .. فقد انتهى كلام هذا الإمام إلى هذا الحد ..

ولكن .. هل لهذه القصة من بقيّة !؟

لا أدري ما أقول ..

قد مات الرجل .....

وانتهى الأمر .

- رحمه الله -

***

صيحة في فلاة ..

قال الله - عزّ وجلّ - :(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *) (1)

وقال - سبحانه - مخاطبًا أزواج النبيّ - صلى الله عليه وسلّم - :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (2)

---*---

نساء النبيّ - صلى الله عليه وسلّم - هُنّ أزواجه في الدنيا والآخرة .. وهنّ أمّهات المؤمنين .. وقد عظم إثمًا - عند الله - أن تُنكح إحداهنّ مِن بعد زوجها - رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم - ؛ فالرجل لا ينكح أمّه ..

هنّ الطيّبات .. **(وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) (3)..**

بل إنّ الله - عزّ وجلّ - لم يَخْلُق - بعد مريم ابنة عمران ، وآسيا بنتِ مزاحم - أنثى - قطّ - هي خير من أولئك النساء - أزواجِ النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - ؛ اختارهنّ له ربّه فما اختار له إلاّ نساء يَلِقْنَ بنبيّه .. ومع ذلك كلّه نُهين عن تبرّج الجاهليّة الأولى!

ولا يعني هذا أنّه أُحلّ لهنّ ما وراء ذلك مِن صُوَر التبرّج ..

كلاّ ! فالتّبرج - و إن اختلفت صوره - يظلّ تبرّجًا ؛ ما دامت العلّة واحدة ..

هو كالمسكر.. وما أسكر كثيره فقليله حرام ..

---*---

ومعنى تبرّج الجاهليّة الأولى (**أن تُلْقِي المرأة الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا**) (4) ..

وأمّا ما تصنعه كثير من النساء - اليوم - فهو شرّ من ذلك ؛ ترى إحداهنّ تُسْفر عمّا بدا لها أن تُسْفر عنه مِن جسدها ..!

ولا جرم أنّ الفتنة بذلك أعظم ، والنهي عنه أشدّ ، و إثمه أكبر ..

هو السفور - إذًا - ! لا يَسْتَمْرِئُه ، أو يُقرّه بَشَر سويّ - قطّ - ؛ ذلك بأنّ النفور من السّفور جبلة مركوزة في الطباع السويّة ؛ فلا يحتاج الأمر إلى حُجَج عقليّة ، ولا إلى أدلّة شرعيّة حتّى يستقرّ قُبْحه في النفوس ..

فإنْ أراد مُريدٌ جدالاً - حتّى - في هذا - فذلك لِما به مِنْ علّة ، وليس لأنّ الأمرَ يحتاج إلى بيان ؛ لقد أتى على المرأة الغربيّة زمان كانت فيه - على غربيّتها ونصرانيتها - أستر جسدًا ، وأقرب إلى الحياء مِنْ كثيرٍ مِنَ المُسْلمات - اليوم - ! وما عَرَفَ الغربُ هذه الأشكال المزرية من اللباس ، وتلك الصُوَر المخزية مِنَ العُرْي إلاّ بعد أن فَسَدَتْ فِطَرُ القوم ، وذَهَبَ حياؤهم ..

وكذلك السافرة المُسْلمة لَمْ تَعرف السفور إلاّ بعدما أصابها من ذلك ما أصابها - لضعف إيمانها - ، فطفقتْ تُقَلِّد وتتشبّه ..

لقد خَلَق اللّهُ لكثير مِن الأنعام أذيالاً ، و إنّ أحدها - تراه - لَيَكْرَهُ - بغريزته - أن يَعْبَث بذيله عابث ..

وأبوانا - من قبل - .. لـمّا أكلا مِن تلك الشجرة ، وبدتْ لهما سوءاتهما طفقا - بفطرتيهما السليمة - يخصفان عليهما من ورق الجنّة - حياءً - لِيُوَارِيا ما بَدَا لَهُما مِنْ سوءاتهما .. ولكنّ تلك المعصيةَ كانت قد نزعتْ عنهما لباسَهما ، فأخْرَجَتْهما ممّا كانا فيه .. فأدرك الشيطانُ بذلك ثَأْرَه .. فكأنّه لَمْ يَشْتَفِ بهذا ، فأراد أنْ يُمْعِنَ في نِكايَتِه بآدَمَ باجْتِناك ذرّيّته (5) إلاّ قليلاً منهم (6) .. أو لربما رأى أنّه - وكما حُرمتْ ذرّيّتُه مِنْ الجنّة - لا بدّ أن يُحرَم منها بنو آدم - كذلك - .. فَنَظَرَ اللعينُ فرأى أنّ الإنسان بقلبه قبل أن يكون بسائر جوارحه ، وأنّه إنْ سَلِمَ قلبُه ، ومات على ذلك فقد نجا - إن شاء الله - ، ومعنى نجاته أن يدخل الجنّةَ بعد أن أُخرِج منها أبوه آدم - عليه السلام - .. وهذا ما يَوَدُّ ذلك الرجيمُ أن يحول بينه وبين أن يكون - أبدًا - .. فلا بُدّ له - إذًا - مِنْ فتنة تُفسد على ابن آدم قلبَه ، و إلاّ فلا أمل لذلك اللّعين في بلوغ الغاية الّتي نَذَرَ عمره الطويل في السعي فيها ..

وحتّى يُدرك حاجته - مِنْ أقرب سبيل - عليه أن يستعين على ذلك بما في هذه القلوب مِنْ أهواء ..

ولمّا كان يَعْلَم أنّ أجمح شهوة زُيّنتْ في صدور الناس ، وأضرّها عليهم هي فتنة النساء (7) فإنّه اتّخذ مِنَ المرأة مُنطلقًا لسعيه ، وجَعَلها مدارًا لعمله .. و إنّما أغراه - بذلك منها - ما جُبلتْ عليه ؛ فهي إلى العاطفة أقرب ، تُغَرُّ بالثناء .. وتميل إلى التشبّه.. وتحبّ التقليد ، والتطلّع إلى كلّ جديد مِنَ المَظاهِر ومُثِير .. هذا أوّلاً ..

وأمّا ثاني ما أغرى الخبيثَ مِنَ المرأة فتركيبةُ جسدِها ؛ فهي بهذا أقْدَرُ على استمالةِ قلبِ الرجل ..

وكان لذلك اللّعين - بذلك - كثير ممّا أراد .. ولو أنّه اتّخذ مِنَ الرجال أساسًا لسعيه - هذا - لَمَا نال مِنْ مُراده ما نال - إذْ أَسَّسَ سَعْيَهُ على النساء - ؛ وذلك لِصِفاتِ الرَّجُلِ الخِلقيّة والخُلُقيّة .. (**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**) (8)

ولقد حذَّرَنا اللهُ تلك العداوةَ ، وما انْجرَّ وينجرُّ عنها - ممّا نحن ، الآن ، بِسبيل تسطيره - حَذَّرَنا ذلك بأسلوب جَزْلٍ سلسبيل

قال - جلّ جلالُه - : (**يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ *)** (9) ..

ووفّى إبليسُ بما توعّد به ، - وكما نَزَعَ عن أبوينا لباسَهما لِيُرِيَهما سوءاتهما - نَزَعَ عنْ كثيرٍ مِنْ بناتِ حوّاءَ لباسَهنّ لِيُرِيَنا - نحن الرجال - عوراتهنّ - ولا أقول: سوءاتهنّ ؛ لأن السوءة كلمة تقال فيمن تسوءه عورته أن تُرى ، بَيْد أنّ هؤلاء لَسْنَ كذلك ..

ترى إحداهنّ تنتشي أن تبدو كاسية عارية ، والناس ينظرون !

كأنّ الثوبَ ظِلٌّ في صباحٍ * يزيد تقلّصًا حينًا فحينًا !

تظنّين الرجال بلا شعور * لأنّك - ربما - لا تشعرين !

ولعلّها كانت - قبل أن تغدو على تلك الحال - تستحيي - حتّى - أن يَرى منها ظلُّها شيئًا ممّا ينبغي ألاّ يُرى .. أو تعبث بِطَرَفِ عباءتها نسمةٌ عابرة .. ثُمّ طفقتْ تنسلخ مِنْ حيائها شيئًا فشيئًا - بصحبتها شيطانات الإنس ، وإطلاقها بصرها - ؛ فإذا هي تَعرف ما كانت تُنكر ، وتُنكر ما كانت تَعرف ! قد استبدلتْ الاستهتار بالاستتار .. وعَدَّتْ ما ارتضاه الله لإمائه ، وأَمَرَهُنّ به ، وجعله مُوافقًا الفِطرَ السويّة - عَدَّتْهُ - تَخَلُّفًا ورَجْعيّة .. وحَجْرًا على الحرّيّة الشخصيّة ! ثمّ اتخذتْ المستترات هزوًا .. ويوشك أن يحيق بها ما كانت به تستهزئ ..

---*---

وبعد: فلولا هؤلاء النساء لَمَا افتتن كثيرٌ - ممّن افتتن - مِنَ الرجال .. فهُنّ الداعي الأكبر لذلك ، وهُنّ اللاّئي يَدفعن الثمن الأعظم .. ثمّ إنّ إحداهنّ لا تكاد تَعْتَبِرُ بما جرى لمثيلاتها .. وكأنّها تَنْتَظِرُ مِنَ السُّنَنِ الجبلية ، والسُّنن الواقعيّة أنْ تُحابِيَها .. وهيهات .. هيهات ..

فيا أيّتها السافرات ! أَنْتُنَّ - والله - على خطر عظيم .. إنّكنّ تُعِنَّ الشياطين على عباد الله .. وإنّه ما منكنّ من امرأة تخرج سافرة فيفتتن بها إنسان إلاّ وقد تأثم مرّتين ؛ مرّة لخروجها كذلك .. ومرّة لفتنتها ..

إنّكنّ بِتَكَشُّفِكُنَّ تَدْعِينَ إلى أنفُسِكُنَّ - شَعَرْتُنّ بذلك ، أم لم تشعرن - .. فَلْتُحَدِّدْ كُلُّ واحدةٍ منكنّ موضعَها مِنْ هذا الأمر ..

و إنّه لمن دواعي العجب أنّك ترى المرأة تخرج سافرة ، فإذا شُبِّبَ بها غضبتْ ، أو تغاضبتْ !!

تناقض ما لنا إلاّ السكوت له * وأن نعوذ بمولانا من النار!

وقد قرأنا - في هذا - الآيةَ الّتي استهللتُ بها تسطير هذا الموضوع : (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ**) ..

فإن قيل بأنّ هذا الزمان غير الزمان الأوّل ؛ فلكلّ زمان أهله ، وعُرفه ..!

فقل : ولكنّ الحياء هو الحياء .. والدين هو الدين .. والفطرة السليمة ، والجبلة ، والغريزة هُنّ هُنّ ..

و إذا استحالت حالة وتبدّلتْ * فالله - عزّ وجلّ - لا يتبدّل

---*---

بَيْدَ أَنَّ التساؤلَ الّذي يستثيره سياقُ ما قد سبق : ما الّذي يَحْمِلُ السافرةَ على أن تصنع هذا بنفسها ؟!

لعلّك إن عرفتَ السبب ذهب عنك العجبُ ، أو بعضُه - على الأقلّ - ..

هي تصنع ذلك لغَيْرِ واحدٍ مِنَ الأمر :

1- **لضعف يقينها بالله - عزّ وجلّ - ، واستهانتها بأمره - سبحانه -** ؛ ذلك بأنّ الهوى غلاّب .. و إنّما سلطانُه على القلوب الّتي أُشْرِبَتْ حُبَّه ، واستكانتْ له لَعظيم .. عظيم .. و إنّه لَبِحَسَبِ قوّةِ تَمَكُّنِه مِنَ القلبِ يكون ضَعْفُ يَقينِ المرءِ في ربّه ..

فلا تعجب - إذًا - أن تَرى السافرةَ المسلمة - ولا سيما إذا كانت ذات جمال - تُصرّ على أنْ تُبدي ما أُمِرَتْ بِستْره ، وهي تعلم - غالبًا - حُكمَ اللهِ في ذلك ، وعقابَه ، ولكنّها تَفعل ؛ لأنّها تَخشى - لِضعف يقينها - أن يَذهب شبابُها فَيَذْوي جمالُها فلا تجد مُعَوّضًا لِمَا تَرَكَتْ .. ولو قَوِيَ يقينُها بالله ، وفي ما عنده - سبحانه - ، وصَدَّقتْ وَعْدَه لَتَركَتْ هواها لله غير آسفة على شيء مِن ذلك ، ولا مُبْتَئسة حتّى يُعوّضها الله في الآخرة خيرًا ممّا تركتْ .. ولربما كان ذلك في الدنيا - أيضًا - .. ولكن ..!

2- **أو تصنع السافرة ذلك بنفسها لأنّها تريد - لسذاجتها - أن تُجرِّب عاطفة يقال لها:(الحبّ !)** .. وكأنّ - هذه المسكينة - ما علمتْ أنّها - بذلك - إنّما تُعرّض نفسَها لحماقة قاتلة قد تُكلّفها غاليًا .. ومع ذلك فهي تريد ..!

تريد أن تسلك سبيلاً لربما كانت تَعْلم مُؤدّاها جيّدًا ؛ بما رأتْ ، أو سمعتْ ، أو قرأتْ .. بَيْد أنّ ما يُغُرُّها بالمضيّ قُدُمًا في سلوك تلك السبيل - مع عِلْمِها بنهاياتها المأساويّة - هو استئناسها بتلك الأحاديث الوُدّيّة ، وركونها إلى تلك الوعود الورديّة بالزواج !! وبالوفاء حتّى الوفاة ! وُعُود أكثرُها كاذبة مِنْ (حبيب !) ما فتئ يَعِدُها ويُمنّيها - تمامًا مِثْل ما يفعل الشيطانُ مع النّاس إذ (**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** *) (10) .. حتّى إذا ظفر الحبيبُ الخبيث بما كان يريد منها نَبَذَها نَبْذَ النواة ، وانطلق يلتمس مُغفّلة أخرى ..

لكنّ الحبَّ النافع - حقًّا - أن تُحبّ الله - حقًّا - ؛ تطيع أمره - سبحانه - .. وتجتنب نواهيه .. وتُؤثره على هواك .. وتَصبر لحُكْمِه .. وتسعى للحلال سَعْيَه .. حتّى يُيسِّرَ

اللّهُ سبيلَك إلى كلّ خير .. وخيرٌ لك مِنْ حُبِّك اللّهَ - عزّ وجلّ - أنْ يُحبَّك الله ، لا أن تَرْتَبِط بِبَشَرٍ برباط أثيم ..

3- **أو تصنع السافرة ذلك بنفسها رغبة في التشبّه بمن لا خلاق لهنّ** ، ويحفّزها على هذا ما تراه مِنْ نظراتٍ ترمقها - في إعجاب - .. وما تسمعه من كلمات تُطرى بها - في استهواء - .. والنساء يغرّهنّ الثناء - كما قيل ، وأشرتُ من قبل - .. وما دَرَت المسكينةُ أنّ تلك النظرات إنّما هي بريد الزنا .. وأنّ تلك الكلمات إنّما هي رسول الفاحشة .. وكم جلبتْ تلك النظراتُ من عيْنٍ ، وحسد ، وأدخلتْ القبر .. ولا يزال المرء لا يتدبّر عواقب أمره حتّى تحيق به عاقبة السوء ..

4- **أو تصنع السافرة ذلك بنفسها لأنّها تشعر بقوّة الرجل وسلطانه على المرأة** ؛ فهي تريد أن تستضعفه - بأنوثتها - ، وتقهر سلطانه ؛ وهي تعلم ألاّ سبيل لها عليه دون أن توقعه في حِبالة سفورها .. فما هي إلاّ أن تظفر بصيد حتّى تمتلئ بنشوة الانتصار .. فلربما انطلقتْ تتيه بذلك - في خبث - على نسوة لا يصنعن صنيعها - استحياء واسْتِنْكافًا - ، وهي تحسب أنّها صَنعتْ شيئًا ، وجاءت بالبرهان على أنها الأقوى !! ولسان حالها : هكذا فلتصنع المرأة بالرجل !!

و إذا كانت السِّنُّ قد تقدّمتْ بها شيئاً قليلاً ، وتَحقَّق لها - مِن وراء سفورها - ما أرادتْ استشعرتْ أنّها لا تزال - على تَقَدُّم سِنّها - كسابق عهدها ؛ تستطيع أن تقهر الرجل ، وتأسر فؤاده - كيف ما شاءت - .. وما ذلك إلاّ لأنّ هذا الفريق مِن السافرات - ومِثْلَ ما يبدو من أمره - لا يُفرّق ما بين الرجولة والذكورة ؛ فالرجولة ليستْ جنسًا فحسب -

مثل ما يعتقد هؤلاء - ، ولكنّها - مع ذلك - صفاتٌ يتّصف بها الذكَرُ فيغدو بذلك رجلاً ؛ هي دِينٌ مستقيم .. وعقل رزين .. وخُلُق قويم .. ومعدنٌ كريم (11) .. فهذه الأربع هي عتاد الرجولة .. والدِّينُ هو أساس ذلك كُلِّه وعمادُه ، ومُتَمِّمُ نُقْصِه ، وجابرُ كَسْرِه .. وهو الّذي يملي على الإنسان أن يَغْضُضَ بَصَرَه - ومِن البداية - عصمةً له ممّا يُعْقِبُهُ إطلاقُه نَظَرَهُ مِنْ تَبِعاتٍ معروفة ، ولألاّ يَسْتَعْبِدَه - بَعْدَ الله - شيء - لا أنثى ، ولا غيرها - ، بل يحيا - ما حيي - سيّدًا في هذا الوجود ، وعبدًا لله وحده ..

ولكنّ هؤلاء السافرات يُفَسِّرْن الأمرَ تفسيرًا مختلفًا ؛ فَتَظُنّ إحداهنّ أنّ الرجل - بِغَضِّه بَصَرَه عنها - إنّما هو يَتَحدّى - بذلك - أنوثتها ، ويزدري أمرها ! فيا ليتها تَعْلَمُ أنّ الرجل إنّما يَفعل ذلك امتثالاً لأمر دينه ، وحفاظًا على نفسه ، وعلى عرضك - أيضًا ، أيّتها المسكينة - .. ويُسْهِمُ - بصورة ، أو بأخرى - في عِفَّةِ أُمّته ، وفي نصرِ الفضيلة الّتي فيها صلاحُ العباد والبلاد .. وبها يُرفع كثيرٌ مِنَ البلاء .. وتُدرَأُ كثير مِن الأدواء..

يا ليتك تَعْلَمين أنّ صيدك الّذي اصطدتِ لا يعدو أن يكون إنسانًا مستضعَف الشخصيّة ، سهل الاصطياد ؛ فلا تحسبي - إذًا - أنّك على شيء إذ أَوْقَعْتِيه في حبائل سفورك ؛ فإنّه إن كان قد تيسّر لكِ أمْرُ اصطياده فما أيسر ذلك على غيرك - أيضًا - .. و إنْ كنتِ قد أَمَّلْتِيه للزواج فَكَمَا لَان لكِ فَسَيَلِينُ لأخرى .. وأغْلَبُ الظنّ أنّه ذئبٌ جائعٌ في مِسْلاخِ حَمْلٍ وَدِيعٍ ؛ لا يُبالي إلاّ بنفسه ، وعلى حساب أغلى ما تملكين ، وقد جاءته الفرصة تسعى ، فلا يزال يتربّص بعرضك الدوائر حتّى يَذْهب

بعفّتك ، ثمّ لا يبوء بعار ذلك سواكِ في مجتمعٍ دَأَبَ على ألاّ يرحم العفيفةَ إن قُذِفَتْ، فكيف بالفاعلة إذا فَعلتْ !

5- أو تصنع السافرة ذلك بنفسها

- **إمّا بُغْضًا في الفضيلة ، ونِكاية بأهلها ، والمنْتَسِبين إليها ، ومسارعةً في استغوائهم** - حسدًا مِنْ عند نفسها - كإبليس تمامًا ، وكأنّها لَمْ تَسمع قولَ اللّه - عزّ وجلّ - : **(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿﴾)** (12) ..

- **و إمّا أنّها امرأةٌ تَسْتَنِيل مِنَ الناس عِزًّا** ؛ أرادتْ أن تتبوّأ - في قلوبهم - مكانة ، وعندهم حظوة ، وأن يُشار إليها بالبنان فأخطأتْ سبيل ذلك كلّه ؛ لقد حَسِبَتْ - لجهلها - أنّ أقرب سبب منها - يبلّغها مرادها - وأوْفَقَه هو أن تستميل قلوب الرجال ، وأن يَكْثُرَ المُعْجَبون بها ، والمفتونون ، وصرعى هواها .. فأعقبها ذلك ذُلاًّ ؛ لأنّها سلكتْ سبيلاً لا يهب إلاّ الذلّ - سبيل المعصية - ، **(أبى اللّهُ إلاّ أن يُذِلّ مَنْ عصاه)** (13)..

حتّى ذلك الّذي بينها وبينه صلة - إذا أراد أن يتزوّج ، ومثل ما قد سطرتُ معناه - فغالبًا ما يَتَجَانَفُ عنها لِيَخْتار مَنْ يراها تَصلح له عروسًا ؛ وأمّا تلك السافرة فهي - غالبًا - أَهْوَنُ عنده مِنْ أن يتخذها شريكة له في حياته ، وأُمًّا لولده ؛ فهو يخشى أن تكون سُبّةً يحيق به عارُها ، أو يُعَيَّرَ بها أولادُه منها ..

ولكنّ سبيلَ العزِّ في طاعة الربّ - جلّ جلالُه - لو كانت - هذه - تعلم !! - (**وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**) (14) ..

6- **أو تصنع السافرة ذلك بنفسها طلبًا لثأرها ، ورغبة في التشفّي والانتقام** ؛ إذ كان لها - في ما مضى - صاحبٌ ؛ فَجَرَ بِهَا فَأَفْقَدَها عِفَّتَها ، وأَوْرَثَها الدّاءَ الخبيث (15) .. ومضى (الحبيب!) يلتمس فريسة أخرى ، فَاسْتَقَرَّ في روعها أنّ الرجال كلّهم سواء ، فآلتْ على نفسها ألاّ تَدَعَ رجلاً يقع في حبائلها إلاّ وجرّعتْه مِنْ كأس الأسى - مِثْلَ ما تَجَرَّعَتْ ، نِكايةً في الرجال - ؛ لأنّها تتمثّل - في كلّ رجلٍ - صاحِبَها الّذي غَدَرَ بها ، وجعَلها أُحْدوثة - بعد وُعُود طويلة .. وأمانيّ عريضة .. وانتظار مملّ - .. فهي تريد - بسفورها ، إذًا - أن تثأر لنفسها منه بانتقامها مِنَ الرجال جميعًا - لو استطاعت - ، فاتّخذتْ مِنْ نَفْسِها طُعْمًا ، وما دَرَتْ - المسكينةُ - أنّها - إن لم تَتُبْ - هي كَشَبِيهَتِها الّتي مضى ذِكْرُها (16) داخلةٌ في عموم ما قد سطرتُ من قول الله - عزّ وجلّ - :(**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**) (17) .. ولعلّ ما ستجد مِن الآلام المبرّحة - حين تشتدّ بها علّتها - هو مِن ذلك العذاب الأليم في الدنيا .. ولعذاب الآخرة أشدّ وأخزى - إن لم تتب - .. لو كانت تعلم ..

7- **أو تصنع السافرة ذلك بنفسها لأنّ هاجس العنوسة بات يؤرّقها** ؛ فهي تريد - وكأنّها تستبق قَدَرَها - أن تتزوّج أيَّ إنسانٍ يَعْلَقُ بِشَرَكِ سفورها ، فحسْبُها أن تنقطع عنها ألسنة الناس ، ويَنْكَبِتَ الشامتون وكفى ..

وأنا أُسِرُّ إلى هذه حديثًا : قد علمنا أنّكِ يضيق صدركِ أن يقولوا إنّما أنت عانس !! ولكنّ العنوسة ليستْ عيبًا يَخْجَلُ به المرء ، ولا هي عورة يجب أن تُسْتَرَ بأيّ خرْقة ، ولا هي دليل على فساد المرأة - مِثْلَ ما أنّ الزواج لا يدلّ ، دائمًا ، على صلاح المرأة ، والواقع يشهد على ذلك - .. و إنّما العنوسة قضاء وقَدَرٌ ، فلا لوم على العانس في هذا .. وما لها - إلى السعي فيه - مِنْ سبيل .. فكيف - إذًا - يُكال لها العذل - هكذا - في أمر لا يَدَ لَهَا فيه !؟

و إنّما العيب ألاّ تصبر العانس نفسها على ما هي فيه - حتّى النهاية - (18) ، بل تخرج من بيتها - في سفور - تَنْشُدُ زواجًا يَسْتُرُها ، ويَكُفُّ عنها ألسنة الناس ، ويَدْرَأُ عنها شماتةَ الشامتين .. وما يدريها فقد لا يُقدَّرَ لها ذلك الزواج - أبدًا - ..

هي تريد - إذًا - أن تُعالج العلّة بالداء ! وكأنّها ما عَلِمَتْ أنّها - بهذا - إنّما تُسيء إلى نفسها مِنْ حيث أرادتْ أن تُحسن إليها ؛ فما يؤمّنها - وَيْحَها ؛ إذ خَرَجَتْ كذلك - أنّها ستسْلَمُ مِنْ ألسنة الناس !؟

لا جَرَمَ أنّها ستُبْتَلى - إذًا - بمن يقول فيها : لولا هَوَانُ هذه لَطَرَقَ الخُطّابُ بابَ أَهْلِها ؛ لا أن تَخْرُجُ في تلك الصورة المهينة - سافرة - تَعْرِضَ نفسها عرضًا ، وكأنّها مِنْ سَقَطِ متاع .. (19)

صحيح أنّ الزواج رزق ، وأنّ الرزق يُسعى في طلبه ، ولكنّ المرء لا يحتاج - في إدراكه رزقَه - إلى أن يستعين - على ذلك - بمعصية الله - عزّ وجلّ - .. والقضاء والقدر لا يَسْبِقهما بَشَر .. ولَأَنْ تَظَلّ المرأةُ عانسًا - على ما في ذلك من القسوة -

أهْوَن مِنْ أن تُخاطر المسكينةُ بنفسها مخاطَرةً لا تأمَنُ عواقبَها - ولو حرصتْ - ، فيحيق بها وبأهلها مِن العار ما لا تمحوه الأيّام ، ولا تَسْدُمُهُ اللّيالي ؛ فلا هي في العير - إذًا - ، ولا هي في النفير ..

ولئن اصطادتْ - بسفورها - صيدًا ، وتمّت تلك الزيجة - على خيْر - أَفَتَرَيْنَ الله يبارك في ذلك الزواج فيستقرّ البيت على وضْع سعيد - حتّى النهاية - ؟ مَن يَضْمَن لكِ - مِنْ زواجكِ هذا - أن لن يُخْتَمَ بالطلاق ؟ ويومئذ يشمت بكِ الشامتون شماتة هي أشدّ عليكِ مِن الأولى ؛ ذلك بأنّ البيت المتين لا يُبْنى على أساس مَهين ..

فإن قال قائل : فبماذا - إذًا - تُعلِّلُ استمساك بيوت كانت بداية أمرها امرأةٌ سافرة اصطادتْ صيدًا!؟

قلتُ: ليس معنى استمساك البيت - في البداية - أنّه لن يخرّ يومًا ما .. فإنْ بَيْتٌ سَلِمَ مِنْ ذلك حتّى النهاية فأنا أُعلّلُ استمساكَه بأمور:

- إمّا أن يكون ذلك رأفةً مِنْ ربّك بالصبيان - فلا ذنب لهم - ..

- و إمّا رحمة منه - سبحانه - بأمَته تلك ، وبِعَبْده - زَوْجِها - ذلك الّذي كان على صلة بها قبل أن يَعْقد عليها .. بل قبل أن يخطبها - حتّى - ..

ولكنّ تلك الرأفة ، وتلك الرحمة لا يلزم منهما أن تشملا - دائمًا - كلَّ البيوت الّتي كانت بدايةُ تأسُّسِها على نحو ما تأسَّس هذا البيت مِنْ صِلةٍ - قبل الزواج - ؛ فما أكثر ما ينهار بيت دون بيت ، وتكون بدايةُ أمْرِ البيتين متشابهة ..

- و إمّا أنْ يكون هذا البيت استمسك لأنّ المذنبَ فيه تاب ، وَوَدَّ لو أنّه استقبل مِنْ أمْرِهِ ما استدبر حتّى يسلك مَسْلَكًا مختلفًا - تمامًا - ..

فأمّا الرجل فَوَدَّ لو أنّه كان رجلاً - منذ البداية - ؛ يأتي البيوت مِنْ أبوابها - كما أمر الله - ؛ فيخطب الفتاة إلى أهلها - أَنْكَحوه ، أم ردّوه - ، لا لصًّا يَقْتَحِمُ البيوتَ مِنْ ظُهورها - بِصِلاتٍ مشبوهة .. آثمة .. - (21)

وأمّا المرأة فأحدثتْ - هي الأخرى - توبة ، وتمنّتْ أنْ لو عاشتْ راضيةً بقضاء الله وقدره .. مؤمنة .. صابرة .. محتسبة .. ، ولو أن تظلّ عانسًا - حتّى النهاية - بَدَلاً من أن تَرْتَكِبَ حماقةً كالّتي ارتكبتْ ..

ثمّ ظلّا - بعد توبتهما - يُصلِحان بالنصيحة ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ..

---*---

فيا أيّتها السافرة .. هل سفورك يُرضي الله ، أم يغضبه ؟

أما تُذكّرك هيأتك المزرية - تلك ، وأنت كاسية عارية - يومًا يقوم فيه الناس لربّ العالمين - حفاة عراة غرلاً - وأنتِ منهم !؟

قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلّم - : « **صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، ... قال : وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ، مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا** » (22) ..

أفليس خير للعبد أن يستحيي مِن ربّه حقّ الحياء ؟

أم أنّ الله - جلّ جلاله - لا يستحقّ منك حياء !؟

أم أنّك لا تبالين بأنْ كانت العربية الحرّة من أهل الجاهليّة - أعني قبل الإسلام - على كفرها أشدّ منك حياء واستتارًا - وأنت مسلمة - !؟ فواعجبًا لك !!

أفليس الأوْلى بالإنسان أن يخشى الله ويَتَّقْهِ قبل أن يلقاه - يوم يلقاه - وفي صحيفته ما قد يعرّضه للطرد من رحمة الله ؟ فمن يرحمه من دون الله - يومئذ - ، أم من ينصره ؟

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ *) (23) ..

فاحرصي - يرحمك الله - على ما ينفعك ، واستعيني به ، ولا تعجزي ، فإنّ الله يلوم على العجز، و إنّ العاجز مَنْ أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله الأمانيّ - ..

قال الله - عزّ وجلّ - : **(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *) (24) ..**

كما أوصي كلّ وليّ أمرٍ استرعاه الله أنثى بلغَتْ مبلغ النساء أن يتّقي الله ؛ فإنّ الله سائلٌ كُلَّ راع عمّا استرعى - حَفظ أم ضيّع - ..

و إنّ المغبون - حقًّا - مَن يضيّع آخرته بفساد دين غيره .. ويتنازل عن بعض قوامته في هوى امرأة تحت ولايته ..

فلا يكن أولئك العرب - في جاهليّتهم - أشدَّ منك غيرة - وأنت مسلم - .. إني أعظك أن تكون من الجاهلين ..

و إنّ الأهون مِنْ أن يُستجرد الرجلُ مِنْ جبلته أن تؤمر السافرةُ بتقوى الله ، وستر مفاتنها .. فلا تكن - أيّها الرجل المُسْتَرْعى - من الغافلين .. ولا مِن المكابرين .. إنّي لك من الناصحين ..

كما أوصي نفسي ، والناس - كافّة ، ولا سيما الشباب - أوصي بتقوى الله ، وبالغضّ مِن البصر ؛ مؤتمِرين - جميعًا - بما أمر الله به ؛ فلا يحلّ لعبد أن يجترئ على بعض ما حرّم اللّهُ - أنْ أسفرتْ السافرة ، أو قَصَّرَ وَليُّها في أمْرها ، أو تنازل عن قوامته - ..

كلاّ ! فكلّ نفس بما كسبتْ رهينة ..(**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**) (25) ..

و إنّ النّاس - جميعًا - عبيدُ الله و إماؤُه .. والله غيور.. ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ..

إنّ هذه نصيحةُ مُذكّر ، لا نصيحة مُتّهِم .. فـ(**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** *) (26) ..

لكنْ عيوبُنا أنّا إذا ما نُصحنا خَدَّرَتْنا الكبرياءُ ..

أقول وستر الدجى مُسْبِلُ * كما قال حين شكا الضفدع

كلاميَ إن قلتُه ضائع * وفي الصمت حتفي ، فما أصنع!؟

***

الأقربون أولى بالمعروف ..

قال الله - تعالى - : (وبالوالدين إحسانًا) (1)

وهي وصيّة الله لبني إسرائيل .. قال - تعالى - : (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) (2)

وقال - كذلك - : (**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ (3)

---*---

قَرَن اللهُ أمْرَه بالتوحيد والإحسان بالوالدين في أكثر من آية من كتابه .. وقرن - سبحانه - شكرَ العبدِ لربّه ، وشكرَه لوالديه في هذه الآية ..

إنّ الله لا يرضى للعبد أن يكون لئيمًا ؛ يسيئ إلى من أحسن إليه ، أو يقصّر - مستطيعًا - في ردّ الجميل ..

إنّ مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، و إنّما الشكر على قدر المعروف - وهو من المعروف - .. والأقربون أولى بالمعروف - مثل ما قيل - ، وأولى بالشكر ..

فما دام الْوالدان - إذًا - أقربَ الأقربين ، ومعروفَهما هو معروفهما فلا جرم أن يَغْدُوَ حقُّهما أعظم ، ويجبَ الشكرُ لهما - كأحسن ما يَشكر مخلوق مخلوقًا - ..

---*---

وسبحان مَن لا يعلم أقدار خلقه إلاّ هو ! أَحَقَّ - سبحانه - لكلّ إنسان - من الحقوق - باعتبار المنزلة الّتي هو حقيق بها ؛ فلِلْكبير حقوق .. وللصغير حقوق .. وللمرأة حقوق .. وللرجل حقوق ... وإنّه ما من حقٍّ ذي حقٍّ إلاّ وهو واجبٌ في ذمّة مَن يقع عليه ذلك الحقّ ..

فَلِلْوالديْن - إذًا - على أبنائهما من الشكر لهما ما يليق بالمكانة الّتي يجب أن تكون لهما عندهم ، أو قريبًا من ذلك ؛ فلن يستطيع ولد أن يجزي والديه ، ولا أن يكون حبُّه الإحسانَ إليهما على قدر ما جُبلا عليه من حُبّ الإحسان إليه .. ولكن مقاربة .. وتسديدًا .. والله المستعان ..

قال النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : «**لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ**» (4)

ألا وإنّ الشكر للوالديْن إنّما يكون بأمور :

1- أن يعتق الولدُ المستطيع رقبةَ مَن مُلِكَ منهما - كما قد قرأتَ في هذا الحديث النبويّ الشريف -

2- أن تُلبّي نداءَ مَن يناديك منهما

3- أن تغضّ صوتَك دونهما ، وألاّ تُحدّ النظر إليهما

4- أن تخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة

5- أن تطيعهما - إلاّ في معصية الله - ؛ إذ الطاعة في المعروف ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

6- أن تدعو ضالّهما إلى الهدى - بالحكمة ، والموعظة الحسنة - ، وتدعو له بالهداية ، وليس عليك مِنْ هُداه مِنْ شيء (**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**) (5)

7- أن تنفق عليهما - من سَعَتِك - ما داما محتاجين

8- أن تتعاهد شؤونهما ، وتقضي حوائجهما

9- أن تصبر على أذاهما

10- أن تكرمهما ، وتهدي إليهما ، وتبجّلهما ؛ فلا تؤثر عليهما أحدًا - من نفس ، أو زوج ، أو ولد -

11- أن تدعو لهما - حيّين - نحو قولك: (**رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ۞) (6)

12- أن تترحّم عليهما - بعد موتهما - ، وتستغفر لهما ، وتدعو لهما

13- أن تقضي عنهما ديْنهما ، وتُنفذ وصيّتَهما

14- أن تحجّ عنهما حجّة الإسلام - خاصّة ، إن استطعتَ إلى ذلك سبيلاً - ، وإن اعتمرتَ عنهما ، أو حججتْ عنهما - نافلة - فمن عندك ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً

15- أن تَصِلَ الرحم الّتي لا توصل إلاّ بهما

16- أن تبرّ صديقهما

و إنّ من تمام البرّ بهما ، ومن المروءة أن تمشي أمامهما ليلاً ، وخلفهما نهارًا ، وألاّ ترتقي سطحًا هما تحته ، وألاّ تأكل معهما على مائدة واحدة - إلاّ أن يسوءهما ذلك - ؛ خشية أن تسبق عينُ أحدهما إلى لقمة - وأنت لا تشعر - فتأكلها دونه ..

و إنّه لَشتّان ما بين إحسان الوالد بولده ، و إحسان الولد بوالده ؛ ذلك بأنّ الأصل في الوالد أنّه - ومثل ما قد سطرتُ معناه - لا يصبر على ما جُبِل عليه من محبّة الطبع ، وحبِّ الإحسان بولده - وهو مأجور في هذا ، إن شاء الله ، إن كان مسلمًا - ..

وأمّا الولد فغالبًا ما يَصْدُرُ - في إحسانه بوالديه - عن تكلّف ؛ فلذلك - والله أعلم - أُمِرَ بالبرّ بهما ، ورُتِّب له - إن أدّى ذلك - ثوابًا جزيلاً .. و إن قصّر في هذا - وهو قادر - عقابًا - على قدر تقصيره - ؛ فليس البرُّ بهما مكافأة ، ولا مقايضة توجب على الولد الإحسان بهما - إن هما أحسنا به - ، وتُحلّ له - إن أساءا إليه ، أو قصّرا في حقّه - أن يتنصّل - ممّا يتنصّل منه - من حقّهما عليه ..!

كلاّ ! بل إنّ البرّ بهما - ولو قصّرا ، أو أساءا - إحسان مُناط بالاستطاعة ، وطاعة - في معروف - ألزم اللهُ ذلك كلَّ ولدٍ - في عنقه ، إذا جرى عليه قلم التكليف - ؛ وكان (7) الوالد والدًا .. والولد ولدًا .. (8)

و إذًا لا يسع من ابتُلي بما يسوءه من أحد والديه ، أو من كليهما إلاّ أن يصطبر ويحتسب ؛ فَلْيُؤَدِّ ما لهما عليه - ما استطاع - ، ولْيَسأل اللهَ ما له ، وبه فلْيستعن ، ولا يعجز ، وسيجعل الله له - بعد عسر - يسرًا ؛ فإنّما هي أيّام معدودة (9) ، ثمّ يوفّى

الصّابرون أجرهم - إن شاء الله - مرّتين ؛ بما صبروا .. وبما برّوا .. فلْيُخْلِصوا .. ولْيبرّوا .. ولْيحتسبوا.. فإنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ..

ألا و إنّ ما قد قرأتَ مِن هذه الواجبات - إنّما هي واجبات عليك - ابنًا - ، وهي لك حقوقٌ - أبًا ..

والبرّ والعقوق - كلاهما - ديْنٌ مُعجّل في الدّنيا .. مؤجَّل إلى يوم القيامة .. فاختر لنفسك ما شئتَ - يا صاح - ، فكما تدين تدان - ولو بعد حين - .. والجزاء - غدًا - من جنس العمل .. (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا *) .. (10)

***

ومن البرّ ما يكون عقوقًا..!!

قال الله - جلّ جلاله - : (**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا**) **(1)**

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - : **«لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ» (2)**

---*---

إنّ الله الّذي أمر الناس بالإحسان لهو - سبحانه - الّذي بيّن لهم ما الإحسان .. ودلّهم على مواضعه .. وحَدّ لهم - في ذلك - حدودًا ؛ من اعتداها فقد انقلب إحسانُه إساءة .. وبرّه عقوقًا .. وأيّ عقوق أشدّ من أن يتمرّد العبدُ على ربِّه الكريم المنّان ؛ فيعتدي - بالشرك - على حقّه في تجريد التوحيد له - سبحانه - ، أو بالفسوق عن أمره ، والعصيان بدعوى البرّ والإحسان ..

إنّ الله لم يحجب خيره عن خلقه ، ولم يمنعهم نِعمَه ، بل أسبغها عليهم - ظاهرة وباطنة - ، وقسَمها بينهم بحكمة وعلم ، ورحمة وعدل ؛ فما من مخلوق إلاّ ولله عليه من النعم ما - لو عَدَّها - لا يُحصيها .. وأمَرَ - سبحانه - بأن يؤتى كلّ ذي حقّ حقّه .. وكان حقّ الله أعظم .. ولا جَرم ..

فعلام - إذًا - يُعتدى - بالشرك - على توحيده ، أو - بالفسوق والعصيان - على طاعته - استجابةً لهوى والدٍ مأفون - !؟ أهكذا جزاء الإحسان !؟

ألا إنّ والدًا يأمر ولده بشيء من ذلك لظالمٌ ربَّه .. معتد أثيمٌ .. متجانفٌ بما خوّله اللهُ إيّاه - من حقٍّ في الأمر والنهي - لغير موضعهما .. مسارعٌ في إبطال حقٍّ ليس له أن يَقْرَبَه - حقِّ الله الأعظم - .. ومجترئٌ على حمى محارم الله - جلّ جلاله - ..

فإنْ والدٌ - والوالدة داخلة في مسمّى الوالد - أحبّ أن يُطاع فلا يَسألنّ ولده ما ليس من حقّه ، ولْيَعرف قَدْرَ نفسه ، وحدود أمره ونهيه ، ولْيلتزم الأدب مع ربّه ؛ لا يكن عدوًّا لله مضلاً مبينًا - إن أبى هذا الوالد إلاّ أن يظلّ على ضلاله مقيمًا - .. و إلاّ فإنّ أمره ونهيه - في هذا - مردودان عليه - رغم أنفه ، ولا كرامة - ..

ولْينظر الإنسان إلى نفسه - إن اعتُدي على حقّه - كيف يغضب .. فكذلك الله - جلّ جلاله ، (**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**) **(3)** - إن اعتُدي على حقّه غضب .. فلئن كان الإنسان يغضب في حقّ ، وفي باطل فإنّ الله لا يغضب إلاّ بالحقّ - سبحانه - ؛ إنّه - وكما قد سطرتُ - ذو الفضل الأعظم ، والحقّ الأعظم ؛ فكيف - إذًا - لا يغضب !؟

أم يريد هؤلاء الوالدون أن يجعلوا لله ما يكرهون - يعامِلون ربَّهم بما يكرهون أن يعامَلوا به - !؟

وكان الإنسان ظلومًا جهولاً ..

أجل ! هو ظلوم .. وبالظلم نَعَتَ اللهُ - في كتابه - أولئك الّذين يعتدون حدوده ؛ فقال - سبحانه - : (**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** *) **(4)** .. ولَلتوحيدُ أعظمُ تلك الحدود ؛ فمن أظلم ـ إذًا ـ ممّن اعتدى ذلك الحدّ !؟

وقال الله - عزّ وجلّ - :(**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**) **(5)** ؛ وذلك بتعريض العبدِ نفسَه لغضب الله .. و إنّه على قدرِ ذلك الحدّ من حدود الله ، ومقدارِ جرأةِ العبدِ عليه يكون حجمُ ذلك الظلم ، وحجمُ جناية الجريء على نفسه .. فمن أجْنى - على نفسه ، إذًا - مِن ذلك العبد !؟

فبِرّ الوالدين - إذًا - طاعةٌ مشروطةٌ بالمعروف ؛ فإنْ غضِب والدٌ على ولده - لأنّه آثر مرضاة ربّه - فغضبُ هذا الوالد مردود عليه ـ مثل ما سطرتُ ، آنفًا ـ ، ولن يضير ذلك الغضبُ الولدَ شيئًا - إلاّ أن يشاء الله - ما دام هذا العبدُ يجتهد في ألاّ يقصّر ..

---*---

وبعد ـ ولألاّ يحسب جاهل أنّ وجوب مخالفة أمر الوالدين - لِشرك ، أو فسوق ، أو عصيان - تُحِلُّ للعبد أن يتنصّل من بعض حقّهما عليه - عقّب الله - بعد ما أَمَرَ بألاّ يُطاعا في أمرهما بالشرك - بقوله ، سبحانه - : (**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**) **(6)**

وقال النبيّ - صلى الله عليه وسلّم ، في الحديث الّذي استهللتُ به هذا الموضوع - : **«لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ» (7)** ؛ ذلك بأنّ الأصل هو البرّ والإحسان بالوالدين ، وترْكُ شيء من طاعتهما إنّما هو ضرورة تُقدّر بقّدرها..

فإنْ تعمّدَ ولدٌ تقصيرًا في حقّ والده فلا يأمن ذلك الولد أن يؤاخَذ - ولو ببعض ما يكون منه من عقوق ، و إن عفا والده - ؛ ذلك بأنّ البرّ هو حقّ الله في المقام الأوّل ؛ حقّه - سبحانه - في الآباء على الأبناء ، والعقوقُ تمرّدٌ على ما أمر الله به من

الإحسان .. - سواء أعَفا الوالدُ ، أم لَمْ يَعْفُ - ؛ فلْيتّق الأولادُ اللّهَ ربَّهم ، ولْيحسنوا صحبةَ آبائهم - بالمعروف - ؛ فليس ثمّة والد لا يرضيه برٌّ بنيه به ، أو لا يؤذيه عقوقُهم إيّاه ، وعفوُه لا يعني رضاه ..

كلاّ ! بل إنّ العقوقَ كبيرةٌ تستوجب الاستغفارَ والتوبة والتحلّل قبل أن يرتحل الوالد أو الولد - أبدًا - ، ولات - إذًا - حين مناص **(8)** .. بل قبل أن تُعجَّل لذلك العاقِّ العقوبةُ - وهو ينظر - ..

فإن ابتُليَ عبدٌ - في سبيل برّه بوالديه - ببعض ما يكره فلا يسعه إلاّ الصبر الجميل ؛ فإنّما هي أيام معدودة - كما قد سطرتُ - **(9)** ، وينفضّ السامر .. ولَيَحمَدَنّ - هذا العبدُ - غِبَّ بِرِّه وصبره ..

وبلى ! فإنّ لله حِكَمًا في كلّ ما تعبّدنا به - في المَنْشَطِ والمَكْرَه - ؛ فمن حكمته - سبحانه ، في هذا - أعني في ما وصّى به في الوالدين - حتّى يعلم - سبحانه - وهو أعلم - منزلته في قلب ذلك العبد ، ومقدار حبّه إيّاه ، ومدى إيثاره على من سواه ، وما سواه ؛ فإن ثَبَتَ العبدُ - في أمره - حتّى النهاية ، وأرى اللّهَ منه خيرًا أوشك اللّهُ أن يعوّضه خيرًا - إن شاء الله - ؛ فيؤتيه أجرًا عظيمًا ، ويَهَبَ له إخلاصًا ويقينًا .. ويُبوّئه مُبوّأ صدق .. ويرزقه من الطيّبات .. ويكفيه ما يكفيه ..

ومثل ما قد سطرتُ - من قبل - لَيَرَيَنّ هذا العبدُ - في بَنِيه - ما كان يصنع مع والديه **﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾** **(10)** ..

صبرتَ ، ومن يصبرْ يجدْ غِبَّ صبْره * ألَذّ وأشهى من جَنَى النحل في الفم

***

مراسَلة بين والد وولده ..

أرسل والد إلى ولده بهذه الخطاب : (أشعر بأنّ يدًا عابثة سعت في التفريق بيني وبينك .. إنّك ابن حلال ؛ بريء ممّا صدر منك من قطيعة .. وما زلتُ أرقي نفسي يوميًّا من هذا ، وأدعو لك بالتوفيق في كل صلاة .. كنتُ أرجو أن تفهمني - من أمد بعيد - فأنا لم أظلم أحدًا ، ولم أبغض أحدًا ، وأفوض أمري الى الله)

فكان جواب الولد : (يا أبت ! إنّما هي أيّام معدودة ، وينفضّ السامر - ولا سيما ونحن في هذه السنّ - ، ويوم القيامة توفّى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، قل : **حسبي الله ونعم الوكيل** ، وكفى .. وأمّا نحن فهذا أمر قد قدّره الله علينا ، وعسى أن يكون لنا - في هذا الّذي ابتلينا به - كفارة للسيئات ، ورفعة للدرجات في جنّة عرضنا السموات والأرض ، ورضوان من الله أكبر ، وذلك هو الفوز العظيم ، واعلم أنّه ما من يوم يمرّ إلّا ويَنقُص من أيام الظالم يوم ، ومن أيام المظلوم يوم ، وكلٌّ من يستوفي رزقه وأجله يمضي إلى قبره ، ثم الله يجمعنا يوم القيامة ، ونرجو من الظالم أن يكون شجاعًا - يومئذ - ...)

***

رسالة عزاء ....

قال الله - تعالى - : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ *) (1)

اليوم نفضتُ يديّ من تراب قبرك - يا بنيّ - ..

ولَحَدْتُك صَدْعًا مِن الأرض مُظلمٍ مُوحِشٍ .. غير موَسّد .. ولا ممهَّد .. ولا أنيس - من الناس ، هناك - .. ولا جليس ..

واستودعتك الله الّذي لا تضيع ودائعه ..

يَا أَسَفَى عليك - بُنيّ - ! فَلَشدَّ ما كنتُ أُبدي القسوة عليك ، وأُجشِّم نفسي عَنَتَ ألاّ يتعلّق فؤادي بك ؛ خشية أن أفارقك يومًا - وأنا رجل مرهف الحسّ ، إلى حدّ بعيد - فيذوب قلبي - من أجل فراقك - كمدًا ، فأَهْلَك على إثرك - أَسَفًا - .. لَكأنّني كنتُ أستعدّ - بذلك - ليوم فراقك ..

ولكن يبدو أنّ هذا لم يغن عنّي شيئًا بما طَعَن فراقُك فؤادي هذه الطعنةً النَجْلاء الّتي ما أراها تندمل حتّى أُوسَّد في التراب دفينًا .. و إنّ رجائي أن يجعل اللّهُ الجنّةَ موعدَنا ..

واحرّ فؤادي على والدتك - الثكلى - وأنا أراها تعتلج غُصصًا مُرّة .. وتُكابد زفرات حَرّى .. تتقطّع لها نياط الفؤاد .. وتسخو عليك بدمع هتول .. صابرة .. محتسبة .. صامتة ؛ تخاف أن تَرِنَّ (2) فتعذَّب - بذلك - في قبرك ، بنيّ - ..

و إنّي لأعلم أنّ مصيبتها فيك أعظم من مصابي بك ؛ إنّه قلب الوالدة ، حتّى قد بتُّ أخشى عليها أن يتفتّت كبدُها عليك .. أو يتطاير عقلُها عليك شعاعًا .. أو تذهب نفسُها عليك حسرات ..

وبعد: فما أكذب هذا الحبّ ! الآن تعلّمتُ - حقًّا - من موتك - بنيّ - ألاّ أعلّق قلبي إلاّ بالحيّ الّذي لا يموت ؛ فهو الّذي يُحَبُّ لِذاته - سبحانه - .. وهو الّذي لا يحول .. ولا يزول ..

وكلّ شيء إذا فارقْتَ له عوض * وليس لله إن فارقْتَ من عوض

إلاّ ما كان مِن حبّ تعبّدَنا الله به فذلك للآخرة - ليس للدنيا فيه نصيب - وأمّا ما سوى هذا الحبّ التعبّديّ فما أراه إلاّ لهوًا ..

أَلَا

(مَن شاء بعدك فلْيَمُت * فعليك كنتُ أحاذر)

(كنتَ السواد لناظري * فعمى عليك الناظر)

(ليت المنازل والديار * حفائرُ ومقابر)

(إنّي وغيري - لا محالة - * حيث صرتَ لصائر)

***

أكل الحلال ، وأكل الحرام ، وأثر هذا وهذا في الإنسان ..

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - : **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ»** (1)

---*---

إنّ للحلال وللحرام لَشأنًا عظيمًا - في الإسلام - .. إنّ لهما ما بعدهما (2) في دين العبد .. وفي دنياه .. وفي آخرته .. ولكنّ أكثر النّاس يحسبون الأمر هيّنًا ، وهو - عند الله - عظيم ..

إنّ العبد إنْ طَعِم حلالًا ، وأطعم أهل بيته حلالًا ، وتورّع عن الحرام لا يزالون - إن شاء الله - في بركة وعافية .. وقد يبلّغ اللّهُ هذا العبدَ ، ويبلّغُ مَن يُبلّغ من أهل ذلك البيت - من المنازل في الدنيا ، وفي الدين ، وفي الآخرة - ما لم يخطر على قلب أحد منهم أنّه بالغٌ بعضَه - يومًا - ..

و إنّ العبد إنْ طعِم حرامًا ، وأطعم أهل بيته حرامًا يوشك أن يُوبِقُ دنياه ، ودنياهم - وهم ينظرون - .. وأن يوبق دينَه وآخرتَه ، ودينَهم وآخرتَهم - وهُم - جميعًا - لا يشعرون ، و إنّهم - و إن عوفوا حتّى حين - لن يذهبوا بعيدًا .. فَكَأَنْ قدْ ...

ألا و إنّ لقمة من حرام يقذفها الوالد في بطن ولده قد تكون أشأم على الولد من شؤمها على الوالد نفسه ..

---*---

ألا و إنّ شَرَّ صُوَرِ الداء أن يَرِقَّ دِينُ العبد .. وهذا لم يكُ شائعًا في الأوّلين من هذه الأمّة ..

إنّ أحمد بن حفص (3) لـمّا دخل عَلَى أَبِي الحَسَنِ - إِسْمَاعِيْل وَالِدِ الإمام البخاري - عِنْدَ مَوْتِهِ ، قال له إسماعيل : (**لاَ أَعْلَمُ مِنْ مَالِي دِرْهَماً مِنْ حرَامٍ، وَلاَ دِرْهَماً مِنْ شُبْهَةٍ.**

قَالَ أَحْمَدُ: فَتصَاغَرَتْ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ ذَلِكَ) (4) ..

إنّ بين هذا الوالد - والد البخاريّ - والمال الحرام بونًا شاسعًا يسمّى الشبهة ؛ ما قَرَبَها اسماعيلُ - كما قال - في ما جَمع من المال - (5) ..

فماذا كانت عاقبة أمر هذا الرجل ؟

لقد بارك الله له في خَلَفِه ؛ فتقبّل البخاريَّ بقبول حسن ، وأنبته نباتًا حسنًا ، ووضع له القبول في الأرض ، وجعله إمام الدنيا - في الحديث - .. و إمامًا في الفقه .. و إمامًا في الورع ... ، و إذا نحن - اليوم - نترحّم عليه أكثر ممّا نترحّم على موتانا ، ومَنْ منّا لا يعرف الإمام البخاريّ ، أو ينكر فضله ؟! - عليه رحمة الله - ..

ومِن قَبْلِه رجل يقال له المبارك بن واضح ؛ كان عبدًا مملوكًا لقاضٍ مِن مَرْو (6) .. و(كان يعمل في بستان لمولاه رمانا، فجاءه مولاه فقال: أعطني من البستان رمانا حلوا، فجاءه منه بِرُمان، فكسره فوجده حامضا، فحَرَدَ عليه وقال: أكلتَ الحلو وأحضرتَ إليّ الحامض، هات حلوا، فمضى، فقطع من شجرة أخرى، فلما كسره سيده .. وجده حامضا فاشتدّ غضبُه عليه، ثم كذلك مرة ثالثة، فقال له: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟ قال: لا، قال له: كيف ما تعرف ذلك وقد مضى لك زمان في البستان؟ ! قال: لأني ما أكلتُ منه شيئا حتى أعرفه، قال: ولم لا تأكل؟ قال: لأنك إنما أمرتني بحفظه، ولم تأذن لي في أكل شيء منه، فكشف سيده عن ذلك، فوجد قوله صدقا، فزوجه سيده بابنته، فولدت عبد الله ....، (يعني الإمام عبد الله بن المبارك - رحمه الله -) (7) فظهرت بركة أبيه عليه.

وقيل: إن سيده استشاره في تزويج ابنته - وكان قد خطبها كثير من الناس - فقال له مبارك: يا سيدي؛ إن الناس يختلفون في الأغراض: فالجاهلية كانوا يزوجون للحسب، واليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة تزوج للدين - يعني الأخيار منهم - فأعجب سيده عقله، فقال لأمها: والله؛ ما لها زوج غيره، فزوجها منه، فجاءت بالدرة الفاخرة، المشتملة على المحاسن الباطنة والظاهرة ...) (8) يعني الإمام ابن المبارك - رحمه الله - .

(وقد تتبع أصحابه ما ظهر لهم من مناقبه فبلغت خمسا وعشرين؛ من العلم، والصلاح، والكرم، والشجاعة في سبيل الله، وحسن الخلق، والعبادة، والنجابة، والفصاحة، وحسن اللفظ في النثر والنظم وغير ذلك.) (9) ..

فلأضرب لبعض هذا أمثالاً ؛ **(كَانَ لَهُ رَأْسُ مَالٍ نَحْوُ أَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ يَدُورُ يَتَّجِرُ بِهِ فِي الْبُلْدَانِ، فَحَيْثُ اجْتَمَعَ بِعَالِمٍ بَلْدَةٍ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَكَانَ يَرْبُو كَسْبُهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ، يُنْفِقُهَا كُلَّهَا فِي أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، وَرُبَّمَا أَنْفَقَ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ) (10) ..**

وكان ينفق على خمسة من كبار أهل العلم ، و**(كان يقول: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد مَن الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابن علية) (11)**

(وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فِي كُلِّ سَنَةٍ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ) (12) ..

و(كان يحج عاما ويغزو عاما فإذا أقبل حاجا لا يمر بمدينة من المدائن إلا قال لمشيختها من أهل العلم والفضل والإقلال: ليخرج معي من أراد الحج فمن خرج معه كفاه المؤنة ...) - عليه رحمة الله - **(13) ..**

ولو أنّني استرسلتُ في سرد مناقب هذا الإمام لخرجتُ عن أصل هذا الموضوع ، فحسبي - إذًا - ما قد سطرتُ ممّا كان مِن أوّل أمْر هذين الإمامَيْن - البخاري ، وابن المبارك - ..

كذلك هي بعضُ بركات أكل الحلال .. و إنّ الورع - وعلى نحو ما قد قرأتَ - لا يأتي إلاّ بخير .. وهذا أصلٌ باقٍ على حاله - يشمل كلَّ مسلم - ؛ فما تطعمه ولدَك

يكاد - وحده - يكون البوصلة الّتي تحدّد وجهة هذا الولد ومستقبله ؛ فترى الّذين يجتهدون في ألاّ يُطعموا أهليهم وأولادهم إلاّ حلالاً كيف يبارك الله في ذرّيّاتهم - كما بارك في ذرّيّة الذين من قبلهم - ، وييسّر لهم أمر تأديب أبنائهم ، فينشأون على ما يحبّ الآباء ، وبأقلّ جهد من هؤلاء الآباء يصلح الله لهم شأن أبنائهم ، حتّى إنّ ولد أحدهم لَيتأدّب بالنصيحة ، وبالكلمة الطيّبة ، وبأيسر توجيه مِن وليّ أمره ، ويفهم بالإشارة ، ويتعلّم مِن غيْره .. ؛ فإذا هذا الولد قرّة عين والديه ، وغير والديه ، و إذا هو سببٌ في جلب دعاء الخير لنفسه ، ولمن كان سببًا في صلاحه ممّن يبرّكون ، ويدْعون - في الشهادة ، وبظهر الغيب - ..

و إن أصلح الله لك ولدك - أيّها القارئ الكريم - فأنعِمْ بذلك - مع ما قد قرأتَ - مِنْ صدقة جارية ينفعك الله بها - إن شاء - بعد موتك ..

---***---

هذا ، ومن الناس مَن لا يبالي أمِنْ حلالٍ كانت لقمتُه ، أم مِن حرام ..

وصدق النبيُّ - صلى الله عليه وسلّم - لـمّا قال ذلك الحديث الّذي استفتحتُ به هذا الموضوع : «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ**» (14) ..

فتراهم يأكلون أكلاً ، ولا يَكَلَّون - كأنّهم الكَلاكل - (15) .. ويعبّون عبًّا ، ولا يَعبَأُون بعِبْءِ ما يَفعلون ..

فمنهم من يتخوّض في عوائد المصارف الربويّة - يسمّونها بغير اسمها (فوائد !!) وهي الربا عينُه ، (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (16) ، كذلك قال الله في كتابه - .. ومنهم من يعقد الصفقات المشبوهة - بل المحرّمة - ، فإن وافق تَرْكُها الدينَ تَرَكَهَا ؛ لِمَا يَرى - في ذلك - من منفعة .. و إن لم يوافق ذلك التَّرْكُ الدِّينَ فالصفقةُ أوّلاً .. وبئست المعاملة !!

ومنهم مَنْ يُوظَّفُ فلا يؤدّي عمله على وجهٍ مَرْضيّ ، ولا يجتهد في ذلك .. و إن كان يعمل مساوعة اختلس من ساعات العمل ما قَدَرَ على ذلك ، وأخَذَ - مع ما يتقاضاه من مال ، حقَّ ساعات لم يعملها ، وأجرَ عملٍ لم يتقنه ، وجهدٍ لم يبذله - مالاً حرامًا ..

ومنهم من يُستأمَن على حِرفة ، أو صنعة ، أو تجارة فلا يُتقن عملَه ، ولا يجتهد للناس في ذلك ، ولا يَنصح لهم فيه ..

ومنهم .. ومنهم .. فمنهم المستكثرون من ذلك ، ومنهم مستقلّون منه ، ولهؤلاء حُكم أولئك المستكثرين ..

ثمّ يأتي مِن الناس مَن - يأتيك بقارورة ماء ، أو زيت - يشكو إليك الإصابةً في نفسه ، أو ولده ، أو غيره من أهل بيته ، فيسألك رقية شرعيّة ..!

فأنّى تغني عنكم رقية شرعيّة - يا آخذ الحرام - ، وقد كنتَ - أنت - سبب ما أصابكم ؛ بما أطعمتَ نفسك ، وأهلك مِنْ لُقَم - غير مبال أمِن حلال هي ، أم من حرام - ، فغايتك أن تَشبع ويَشبَعون وكفى - ..

آلآن !!؟

ألم تعلمْ أنّ مِنْ شؤم لقمة الحرام أنّ عناية الله - تبارك وتعالى - وحفظَه قد يرتفعان عمّن طعِمَ ذلك الحرام وأُطْعِمَهُ ، فيكون البلاء أعجل إليهم من العافية ..!؟

فإن جأَروا بالدعاء فأنّى يستجاب لهم ..!؟

وأنّ من شؤم لقمة الحرام أنّها تُسْقِطُ هيْبةَ صاحبِها ، ويُرى أثَرُ ذلك - أحيانًا - في هوانه على الناس - و إن جاملوه - ..

و- أحيانًا - في خُلُقِ امرأته ، وأهل بيته - بل وحتى في مَطِيَّتِه - ؛ يَأْمُرُهم .. وينهاهم .. ويَعِظُهم .. فما يكادون يلتفتون إلى ذلك .. ولربما نشزتْ به امرأتَه ..

(قال الفضيل بن عياض: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق دابتي وجاريتي) .. (17)

و- أحيانًا - يُرى أثرُ ذلك في تغيّر قلب الزوج على أهل بيته - ولو دون سبب وجيه - .. وقد يكون هذا التغيّر ، وذلك النشوز ، والتجاهل أسبابًا في خراب هذا البيت ..

وأنّ من شؤم لقمة الحرام أنّها قد تَمْحَق بَرَكة الولد فيستعصي على والده تأديبه ؛ يحدّثه أبوه فلا يسمع .. يأمره وينهاه فلا يطيع .. يُطعمه فلا يشبع .. يعطيه فلا يقنع .. يستخدمه فلا ينفع .. أينما يوجّهه لا يأتي بخير .. يضربه والدُه الضرب المبرّح فلا يزيد - ذلك - الولدَ إلاّ عتوًّا ونفورًا .. وتماديًا في العصيان وفجورًا .. وكلّما تقدّمتْ به السنّ ازداد تمرّدًا وعقوقًا .. وكان بئس الولد .. شؤمًا على أبويه .. جريرة دعاء السوء على والديه .. يلعنه اللاعنون .. ويلعنون مَن وَلَدَه ، وأساء تأديبه ، و إن شئتَ فقل : مَن - بالحرام - أفسده ..

يحبّ أبوه موتَه فلا يموت .. يدعو عليه فأنّى يُستجاب له فيه ..!؟

فإذا انضاف إلى ذلك أنّ أمّ هذا الولد - حاملته في بطنها ، ومرضعته ، وزوجَ هذا الرجل - هي مؤاكلة زوجها - أيضًا - من ذلك المال الحرام ؛ فلا غروى - إذًا - في أن يكون من شؤمها - على هذا الولد - ما يكون ..

وأنّ من شؤم لقمة الحرام أنّ ذلك قد يلازم الولدَ - الّذي غذّي بالحرام - إلى كِبَره

قال النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في الحديث الّذي " **ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ** " قال - صلى الله عليه وسلّم - : "**وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟** " (18) ..

وأنّ من شؤم لقمة الحرام أنّها تَحْرِم آكلَها التوفيقَ .. وتَحْرِمُ العابدَ روحَ العبادة - إخلاصًا .. وخشوعًا .. ولذةً .. - ، وتثبّط همّة طالب العلم ، ويدخل - في هذا المعنى - تلاميذ المدارس ولا بدّ - ..

وأنّ من شؤم المال الحرام أنّك لو أنفقته في طاعة لله فلن يُقبل منك ؛ ذلك بأنّ (**اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**) (19) ، و(**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** *) (20) ..

أو استكسيتَ به بدنَك فإنْ تَزِيد على أن تتسرْبَل بِسِرْبال مِن نار - في الدنيا قبل الآخرة ، إلاّ أن تتوب - ..

وقِسْ - على هذا وهذا - غيرَهما - مِنْ أوجُهِ الإنفاق - ..

ولو متَّ وخلّفتَ ذلك المالَ - مِن بعدك - فإنّ عليك غُرْمَه ، وللورَثة غُنْمَه ..

وأنّ من شؤم أكل الحرام أنّ آكله يسقط مِن عيْن الله ، فقد يَكِلُه الله إلى نفسه .. ولا يبالي به أنّى هلك ..

وأنّ من شؤم الحرام أنّه قد يخدع صاحبَه عند الموت - إن لم يتب - ؛ يُخذَل ، فيُحال بينه وبين أن ينطق بالشهادتين ..

فهل بعد هذا الشؤم من شؤم !؟

(**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** *) (21) ..

بيْد أنّ أحدنا لا يدرك هذا المعنى - حقًّا - حتّى يتوفّاه الله ، فإذا خرجتْ روحُه ، وبَرَح الخفاءُ ، وانكشف الغطاء ، فعايَنَ ما لم يكن رأى - من قبل - ؛ فحينئذ حينئذ ..!

ألا و إنّ مَن تَرَك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا ممّا تَرَك - مثل ما فَعل اسماعيلُ والد الإمام البخاريّ - لمّا تَرَكَ الشبهة في ما جَمع من المال ، ومثل ما فَعل المباركُ بن واضح لـمّا تَرَك الأكل مِن ثمر ذلك البستان - تورّعًا ، ومثل ما قد قرأتَ - فعوّضهما الله خيرًا ..

ولْتَعْلَمْ أنّ طَعم اللقمة لا يبقى في الفم أكثر من ثلاثين ثانية .. ولكنّ تبعات اللقمة الحرام - وكما قد قرأتَ ، أيضًا - هي تبعاتُها ..

وأنّك لن تأخذ إلاّ رزقك ، ولن تأكل أكثر مِن مِلْء بطنك ، ولن يستفيد بدنُك - ممّا أكلْتَ - إلاّ مقدار حاجته من ذلك ، فما زاد عن ذلك فهو إلى المجاري مصروف !

وأنّ كلّ « **جسد نبت من سحت فالنار أولى به**» (22) كذلك قال النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ..

ففيم هذا الحرص كلُّه منك - إذًا - !؟ وبالحرام - أيضًا - !؟

كلاّ ! بل إنّك لو كنتَ - في العبادة - إمامًا - لا عِدْل له - ، واجتمعتْ فيك خصالُ الصالحين كلّها ؛ فإنّ امرأتَك وولدَك وجميعَ مَنْ هُمْ تحت ولايتك قد يوقفونك - غدًا - على شفير جهنّم ؛ ذلك بما فرّطْتَ في ما أوجبه الله لهم عليك - مِن إطعامهم الحلال - ؛ أفليس هؤلاء - جميعًا - تحت مسؤوليّتك ، والمسؤوليّة - ما علمنا - تكليف لا تشريف .. !؟

أفلم تقرأ قول الله - عزّ وجلّ - : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**) (23) .. !؟

فأنت - إذًا - وذاك .. فإنّما هو كتابُك .. املأه بما شئتَ .

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *) (24)

***

شؤم الذنوب ..

قال الله - عزّ وجلّ - : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *) (1)

وقال - تعالى - : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ*) (2)

وقال - سبحانه - : (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ *) (3)

---*---

الذنب شرّ ما له من دافع .. والاستغفارُ خيرٌ لا بدّ منه .. وكأيّ مِن ذنب مستهان به ، أو مغفول عنه حَرَمَ خيرًا كثيرًا ، أو أخَّرَهُ .. أو قلّله ، أو أزال نعمة ، أو بَدَّلَها نقمةً ، أو أوبَقَ دنيا ، و دينًا ..

ذلك بأنّ الذنب شؤمٌ على الإنسان مِنْ كلِّ وجهٍ ؛ وبيان ذلك أنّه ما مِن نعمةٍ أنعم اللهُ بها على عباده إلاّ ليستعينوا بها على تحقيق ما خُلِقوا من أجله ؛ فإن استُعْمِلَتْ النعمة في غير ذلك فقد يُمحَقُ مِنْ بَرَكتِها ما يُمحق ، ولربما ذَهبَتْ تبعاتُ ذلك إلى أبْعَدَ مِنْ ذلك ، إنّها تُفسد ما بين العبد وربّه .. و - أيضًا - ما بين العبد ونفسه (4) .. وما بين العبد والخَلْقِ ..

إلاّ أن يكون الأمر استدراجًا ، فالمصيبة - إذًا - أعظم

قال النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : **«إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج»** (5) ..

و إنّه - و إن كان لا يَحِلُّ التطيُّرُ ولا التشاؤمُ فإنّ ذلك - قد يَحِلُّ للعبد في نَظَرِهِ إلى ذنبه خاصّةً - (6) ؛ عسى - وخشيةَ ما في الذنوب مِنَ الشؤم - أن يتوب منه توبةً نصوحًا ، فَيَعْزِمَ على ألاّ يَعود لِمِثْلِه أبدًا ؛ وهو - لا محالة - عائدٌ - ما دام حيًّا - ..

ومِن العَجَب أنْ يَغْفَلَ عن ملازمة الاستغفار مَنْ كانت تلك حالُه !! (7)

إنّ مِنْ شؤم الذنوب - وتفصيلاً لِمَا قد سطرتُ في إجمال - أنّها **تُفْسِد الفطرة .. وتُمْرِضُ القلب .. وتقتله ..** وعِلَلُه شتّى ومتشعّبة - عِلَلُ شُبُهاتٍ .. وعلل شهوات .. - (8) ، ورُبّ عِلّة فيه هي أَصْلٌ لِعِلّة أخرى فيه ، أو أكثر .. وهي فرْعٌ عن عِلّة فيه ، أو أكثر (9) ؛ فأنّى للمُذْنب - إذًا - أن ينجو مِن ذلك كلّه !؟

ومن شؤم الذنوب أنّها تُفْسِد على العبد إخلاصَه .. وتُعَسِّرُ عليه أمورَ دينه .. وتَحْرِمُه حلاوةَ الإيمان .. ولذّة الطاعة .. وبَرْدَ المناجاة .. والاستئناس بصحبة الصالحين ، ومَجالِسِهِم ..

ومن شؤم الذنوب أنّها تُضعِفُ إيمان العبد .. وتُرَقِّقُ دِينَه حتّى يَبْلى ، فإنْ ذَهَبَ يُغْسَلُ دِينُه - بِماءِ الابتلاء - تَخَرَّقَ تَخَرُّقَ الثوبِ البالي ؛ فإذا بهذا الإنسان يقول ما يقول .. ويَفعل ما يَفعل .. ؛ ساخطًا على ربّه في حُكْمِه !!

وكأيٍّ مِنْ مُذْنِبٍ زاده البلاءُ وِزْرًا على وزر !! وكأيٍّ مِنْ ذَنْبٍ حَمَلَ على الرِّدَّة !!

ومن شؤم الذنبِ الذنبُ بَعْدَه ؛ فإنّ العبد إذا أَذْنَبَ ذنبًا ثُمّ لَمْ يَتُبْ يوشك ذنبُه أن يقول : اعمل أخي مِثْلي !! فكفى بالذنوب شؤمًا أن يَلِدَ بعضُها بعضًا !!

ومن شؤم الذنوب أنّها قد تَشُدُّ إليها المذنبَ شَدًّا يُبَطِّؤُه عن الطاعة .. وذلك التباطؤ يَخْتَلِفُ مِنْ مذنب إلى مذنب - باعتبار ذنبه - .. بل إنّ الذنب قد يَشُدُّ إليه - حتّى - مَنْ هو حديثُ عهدٍ بتوبةٍ ؛ إذ يَشُقُّ عليه - ابتداءً - أن يَستقيم - كما يحبّ - .. (10)..

ومن شؤم الذنوب أنّها تُورِثُ العبدَ الذُّلَّ ؛ ولا جَرَمَ !

هَرَبوا مِن الرقّ الذي خُلِقوا له * فبُلُوا بِرِقِّ النفس والشيطان

قَالَ الْحَسَنُ البصريّ - رحمه الله - : (**إِنَّهُمْ وَإِنْ هَمْلَجْت بِهِمْ الْبِغَالُ، وَطَقْطَقْت بِهِمْ الْبَرَاذِينُ، فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَفِي قُلُوبِهِمْ، أَبَى اللَّهُ إلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ**) .. (11)

وبضدّها تتبيّن الأشياء ..

ومن شؤم الذنوب أنّها تُسْقِطُ هيبةَ العاصي ؛ يَأْمُرُ وينهى فلا يُطاع .. ويُرى أَثَرُ ذلك - حتى - في خُلُقِ امرأته ، وفي مَطِيَّتِه

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - : (**إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق دابتي وجاريتي**) (12) ، وقد سطرتُ هذا المعنى في موضع سابق من هذا الكتاب..

ومن شؤم الذنوب أنّها قد تَذْهَبُ بصُوَرٍ - أخرى - من العافية .. وتفتحُ مِن الشرّ أبوابًا وأبوابًا لا توصَدُ إلاّ بالتوبة النصوح ؛ تُسَلِّطُ على الناسِ مَن لا يتّقي الله فيهم ..

وتُسلِّطُ على الإنسانِ - أيضًا - أعداءه .. وغيْرَ أعدائه .. (13) - مِمّا يُبصِرُ .. وممّا لا يُبصِرُ .. -

(رُوِيَ عَنْ وَكِيْعٍ: أَنَّ رَجُلاً أَغلَظَ لَهُ، فَدَخَلَ بَيْتاً، فَعَفَّرَ وَجْهَه، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الرَّجُلِ، فَقَالَ: زِدْ وَكِيْعاً بِذَنْبِهِ، فَلَولاَهُ مَا سُلِّطْتَ عَلَيْهِ) (14) ..

ولا ريب أنّه ما مِنْ دابّة في الأرض إلاّ وفيها مِن الشرّ ما فيها ، فإن ارتفعتْ عافية عن عبدٍ - بذنبه - فأنّى له - إذًا - أن يَهْنأ بِعيشٍ !؟

ومن شؤم الذنوب أنها قد تَمْحَقُ بَرَكةَ العمر ؛ ذلك بأنّ الذنب يُسَلِّطُ على صاحبه - مِنَ المصائب - ما قد يكون في بعضها موتُ الإنسان ، والذنوب تُغضِبُ الربَّ ، والصدقةُ - الّتي تطفئ غضبَ الربّ - تزيد في العمر

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - : «**صدقة السرّ تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر وفعل المعروف يقي مصارع السوء**» **(15) ..**

و «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ**» **(16)**

وقال النبيّ - أيضًا ، صلى الله عليه وسلم - : "**من سرّه أن يُمدَّ له في عمره ويُوسَّع له في رزقه ويُدْفَعَ عنه مِيتةُ السُّوء فليتّق الله ولْيَصِلْ رَحِمَه**" **(17)**

ومن شؤم الذنوب أنّها تَمْحَقُ بَرَكة الوقت ، وقد تَحْرِمُ العبدَ التوفيقَ لأن يُؤدّي عَمَلَه - بإتقان ، ودون تأجيل - ؛ تَرى مَنْ كانت تلك حالُه يُرجئُ مِنَ العمل - ما يُرْجِئُ - إلى أوقاتٍ لاحقة ؛ كان الأصلُ أنْ تُصرَفَ في أعمالٍ - أخرى - نافعة ! وهكذا حتّى تتراكم الأمورُ على صاحبها ؛ وذلك مِمّا يَحْمِلُه - في كثير مِن الأحيان - على أن يُؤدّيَ منها ما يؤدّي - دون إتقان - .. ويَتْرُكَ منها ما يَتْرُكُ - ولا بُدّ - .. ولا يخفى ما في تلك

الصورة مِنْ تَشَتُّتِ شَمْلٍ .. وتّذَبْذُبِ حال .. وتضييع حَقٍّ .. وواجبٍ .. وغَبْنٍ .. وأيّ غبن !! و إنْ كلُّ ذلك لَمِنْ شُؤم الذنوب ..

و ما غُبِن كثيرٌ من الناس - في نعمتيْ الصحّة والفراغ - إلاّ بذنوبهم ..

ومن شؤمها أنّها قد تَمْحَقُ بَرَكَةَ العقل والبدن ؛ تُضْعِفُهُما .. وتُوهِنُهُما .. وتُعِلُّهُما .. (18) ؛ ويَظْهَرُ أَثَرُ ذلك - مُبِينًا - في كثير من الناس - عند الكِبَرِ - ؛ حتّى يَضيقَ بهم - مَنْ حَوْلَهم - ذَرْعًا ..

قال هودٌ - عليه السلام - لقومه : (**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** *) (19) ..

وقال النبيُّ - صلى الله عليه وسلّم - : «**داووا مرضاكم بالصدقة**» (20) ، فلْتَجمع هذا الحديث النبويّ إلى الحديث النبويّ الّذي سطرتُ - آنفاً - : «**صدقة السر تطفئ غضب الرب ...** » يتجلّى لك المعنى الّذي قد أردتُ - أعني أنّ الذنب يُغضب اللّهَ - عزّ وجلّ - ، ويُعلُّ العقل و البدنَ ، والصدقة - ولا سيما صدقة السرّ - تطفئ غضب الله - عزّ وجلّ - ، وتُداوي العقل والبدنَ - ..

و(**كَانَ الطيب أبو الطبري قَدْ جاوز المائة سنة وَهُوَ ممتع بعقله وقوته فوثب يوماً من سفينة كَانَ فيها إلي الأرض وثبة شديدة فعوتب عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: هذه جوارح حفظناها فِي الصغر فحفظها الله عَلَيْنَا فِي الكبر**) (21)

وعكسُ هَذَا ما قال الجنيد - إذ رأى شيخاً يسأل النَّاس فَقَالَ - : (**إنّ هَذَا ضَيَّعَ اللّهَ فِي صغره فضيّعه اللّهُ فِي كبره...**) (22) ..

ومن شؤم الذنوب أنّها تَجْعَلُ صَدْرَ العاصي ضَيّقًا حَرجًا - كأنّما يَصَّعَّد في السماء - ؛ وتَحْمِلُه على ما يَتَرتّبُ عن ذلك مِنْ سرعة الغضب ، وما قد يترتّب عن ذلك مِن رَهَق .. ونَزَق .. وأمورٍ لا تُحمَد عقباها ..

قال الله - عزّ وجلّ - : (**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ⁕) (23) ..

وقال - سبحانه - : (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**) (24) ..

ومن شؤم الذنوب أنّها تُعْمِهُ البصيرة.. وتذهب بنور الوجه .. ، وبضدّها تتميّز الأشياء

قال الله - سبحانه وتعالى - : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**) (25) ..

وقال - سبحانه - : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ⁕) (26) ..

وقال ربُّنا - في سياق ثنائه على محمّد رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، والّذين معه - : (**... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ...**) (27) ..

وقال قائلٌ : **مَن صلّى بالليل حَسُن وجهُه بالنهار** (28) ..

---*---

ذلك ، وما أكثر ما يَتَمَثَّل الذنبُ في هَيْئَةِ عارضٍ يُصيبُ طالبَ العلمِ فيتعسّر عليه الحفظُ ، ولا يستقيم له الفهم ؛ تَرَى الطالبَ - قبل ذلك - مُنطلِقًا في الطلب انطلاقَ

الجياد العاديات - حِفظًا ، واستوعابًا ، واستئناسًا بِحِلَقِ العلم ، وقُربًا مِنَ الشيخ - ؛ فما هو إلاّ أن يُحْدِثَ هذا الطالبُ ذنبًا حتّى يقع - في حفظه - شيء ، وتَفْتُرَ هِمَّتُهُ ، ويَخِفَّ سَعْيُه ، ويُدركَه ما يُشْبه المَلَل .. ويَبْلُغَ ذلك منه ما يَبْلُغُ - على حَسَبِ معصيته - ؛ يُريد أن ينطلق - كسابق عهده - فَيَشْعر أنّ ثمّة أمرًا خفيًّا يَشُدُّه .. ويَصُدُّه .. فما هو إلاّ أن يَلْزَمَ الاستغفارَ حتّى يَنطلق في الطلب - كما كان - ؛ كأنّه قد نَشِطَ مِن عِقَال..

قال الله - عزّ وجلّ - : (**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** *) (29) .. وقد أحسن من قال :

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي * فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال : بنيّ ! إنّ العلم نور * ونور الله لا يؤتاه عاص

وقد يُبتلى العالِمُ بذنبٍ يُصيبُه فَتَشْرُدُ عليه المسألةُ ، وتعزُب عنه أخرى ، ويَنقطع في المناظرة ، ويكثر خطؤه ، ولا يُوَفَّقُ في تبليغ ما معه من الحقّ ، ولا تُسخَّرُ له الآذانُ الواعية ؛ فَيُحْرَمُ أجرَ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ - على يديْه - مِمَّنْ لولا ذَنْبُه لأقبلوا فاستمعوا .. وانتفعوا .. واهتدوا .. واتَّبَعوا .. ولربما بَلَّغوا .. فما هو إلا أن يَلْزَمَ الاستغفارَ حتّى يَمضي في شأنه وكَأَنْ لَمْ يكن شيء ممّا كان ..

وقد يَتمثَّلُ الذنبُ في هَيئةِ قسوةٍ تُصيب القلبَ فلا يَلينُ بذكر الله .. ولا يَنتفع بموعظة .. ولا يَنتصح بنصيحة ..

قال الله - عز وجلّ - : **(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ***) (30) ..

وقال - أيضًا ، سبحانه ، في بعض مَن كان قَبْلنا - : **(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *)** (31) ..

ولربما تَمَثَّلَ الذنبُ في هيئةِ ضعفٍ يطْرأُ على العابد فلا يَخْشَعُ في صلاةٍ .. ولا يَتَدبَّرُ تلاوةً .. ولا يَستحضر فؤادَه وهو يدعو - ولو حَرَصَ - ؛ ممّا قد يُقلِّلُ الأجرَ ، ويُضعِفُ الرجاء في الإجابة ..

قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلّم - : **" إن الرجل لينصرف؛ وما كتبَ إلا عُشْرُ صلاتِهِ، تُسُعُها، ثُمُنُها، سُبُعُها، سُدُسُها، خُمُسُها، رُبُعُها، ثُلُثُها، نِصْفها "** (32) ..

وقال النبيّ - أيضًا ، صلى الله عليه وسلّم - : (**... إن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهرِ قلبٍ غافل**) (33) ..

***

ومن شؤم الذنوب أنّها تُعَسِّرُ على العبد أمورَ دنياه ؛ تُضَيِّقُ سُبُلَ الرزق الحلال .. وتَذهب ببركته .. وقد تكون سَبَبًا في فَقْرِ العاصي ..

قال الله - سبحانه وتعالى - : (**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ***) (34)

وقال - سبحانه - : **(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ***) (35)

وقال الله - عزّ وجلّ - : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (36) ..

ومن شؤم الذنوب أنّها قد تَمْنَعُ مِن بركات السماء والأرض ما تَمْنَعُ ؛ تَمنَع القَطْرَ .. أو تَصْرِفُ الماء إلى حيث لا يَنْتَفِعُ به الناس ، أو يَقِلُّ انتفاعهُم به .. ولولا البهائم لَمَا أُمطِروا ..

قال نوح - عليه السلام - لقومه : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا *) (37)

وقد قرأتَ ما قال هود - عليه السلام - لقومه : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) (38)

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم ، فيمن يَمنَعُون الزكاة فيُمْنَعون القَطْرَ - : (... وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ...) (39) ..

وقال الله - جلّ جلاله - : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *) (40) ..

ومن شؤم الذنوب أنّها قد تُحَرّمُ على الناس طيّباتٍ أُحِلَّتْ لهم ..

قال الله - عزّ وجلّ - : (فَبِظُلْمٍ مِنَ الذين هادوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *) (41)

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ *) (42)

ومن شؤم الذنوب أنها قد تذيق القرى لباس الجوع والخوف .. واسألْ - إن شئتَ - عن القرى الّتي **(كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُ رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *) (43)** ..

ولا محاباة ؛ فإنّ الله - جلّ جلاله - لا يحابي - في معصيته أحدًا مِنْ خَلْقه ، بحال ، و إن كان نبيًّا ، في الجنّة - ، أو نبيًّا غَضِبَ غَضْبَةً لله فأتى أمرًا دون ما إذْنٍ إلهيّ ..

فالربّ - سبحانه - هو الربّ .. والعبد هو العبد .. والذنب هو الذنب - و إن اختلفتْ الأمم في ما جعل اللّهُ لها مِن شِرعة ومِنهاج - (44) ..

فاذكر أبانا آدم إذ عصى ربَّه - بأكله ، عليه السلام - من تلك الشجرة فغوى ..

قال الله - عزّ وجلّ - : **(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ *) (45) ، (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *) (46)** ..

واذكر ذا النون - عليه السلام - **(إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) (47) ، (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ *) (48) ، (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) (49) ، (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *) (50)**

وقال الله في شأن نبيّنا محمّد - صلى الله عليه وسلّم - : (وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا *) (51)

و قال الله - أيضًا - في نبيّنا محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ *) (52)

فلا محاباة - إذًا - ..

ومن شؤم الذنوب أنها قد تُحيل النصرَ هزيمةً .. فإنّ أولئك الصحابة - رضي الله عنهم - لمّا خالفوا عن أمرِ رسولِ الله - صلّى الله عليه وسلّم ، وهم على جبل الرماة - كان مِن أَمْر غزوة أُحُد ما كان ..

قال الله - عزّ وجلّ - : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *) (53) ..

وقال - سبحانه - : (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *) (54) ..

وقال - جلّ جلاله - : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *) (55)

ذلك لِنَعْلَمَ - أيضًا - أنّ الله لا يحابي - في المخالفة عن أمره - أَحَدًا - و إن كان صحابيًّا - ، وأنّنا نحن الأوْلى منهم - مرارًا - بأن نخشى على أنفسنا .. وأنّ الصحابة ما بَلَغوا ما بَلَغوا لِكَونهم معصومين ، كلاّ ! فلا عصمة إلاّ لنبيّ ، بل لشيء وَقَرَ في صدورهم - وهُمْ بَشَر مثلنا - فصدّقته أعمالهم - رضي الله عنهم أجمعين - ..

فلا عذر - إذًا - ..

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *) ..(56)

---*---

ومن شؤم الذنوب - أيضًا - أنّها قد تُخَبِّبُ المرأة على زوجها .. وقد تُغَيِّرُ قلبَ الزوج على امرأته .. وقد تُفَرِّقُ بينهما .. وعلى الرجل ألاّ يَعْجَلَ في الطلاق .. وعلى المرأة ألاّ تعجل في الاستخلاع حتّى يستغفر كلٌّ منهما ربَّه كثيرًا ؛ إذْ ما يُدريهما ألّا يكون ذَنْبًا مِنْ أحدِهما ، أو مِنْ كِلَيْهما هُو ما بَلَغَ بالأمر بينهما ذلك المبلغ ؛ عسى اللهُ أنْ يَرُدَّ - بملازمتهما الاستغفار - الأمورَ إلى نصابها .. وقد سطرتُ - آنفاً - ما قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - (57) ..

ومن شؤم الذنوب أنّها قد تَحْرِمُ المرءَ الولدَ ؛ قال نوح - عليه السلام - لقومه - في الآيات الّتي قد مضى تسطيرها - : (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ***) .. (58)

ولربما كانت الذنوبُ سببًا في تَعَسُّر المخاض ، وقد سطرتُ - أيضًا - في هذا المعنى - قول الله - عزّ وجلّ - : (**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** *) (59)

ولئن وُلِد لهذا الوالد فكثيرًا ما يُحْرَمُ التوفيق في وَلَده - والعقوقُ يَشْمَلُه هذا المعنى **وقد يُحْرَمُ الوليدُ لِبَانَ أمِّه - مِن أجْل معصيتِها -** ؛ فإمّا أن يَجِفَّ ثديُها بالمَرَّة ، و إمّا أن يَرْغَبَ الرضيعُ عن الثدي إلى الرضّاعة الاصطناعيّة .. ولا شكّ في أنّ ذلك يُشْعِرُها بالنقص في أمومتها .. ويؤثّر في نموّ الرضيع - غالبًا - ..

ولربما قسا الأبوان على ولديْهما قسوةً في غير موضعها ؛ قسوة سببها المعاصي ، وما تُعْقِبُهُ مِن ضِيقٍ في الصدر ، وشعورٍ بضنَك المعيشة .. حتّى يَمْقُتَ الولدُ أبويْه .. وما أكثر ما يَحمِلُه ذلك على أن يَجْفَلَ إلى الشارع مِنْ سوء معاملتهما إيّاه ..

---*---

ومن شؤم الذنوب أنّها تورث العبدَ الدياثةَ - في أوسع معانيها - ؛ يَرى مِن المنكر - ما يَرى - لا يؤذيه ذلك !! بل لربما عَجِبَ لِمَنْ يَراه يُنْكِرُ ! أو أنكرَ عليه إنكارَه !! ومِثْل ما قيل : **كَثرةُ المساس تُبَلِّدُ الإحساسَ** (60) ..

ومن شؤم الذنوب أنها تُعْقِبُ العبدَ غَضَبَ الربّ وسخطَه ومقتَه .. ومِنْ ثَمَّ بُغْضًا في السماء ، وفي الأرض ؛ ذلك بأنّ اللهَ "... **إذا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ** " (61) ..

وقال ربُّنا - عزّ وجلّ - : (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** *) (62) ..

ومن شؤم الذنوب أنها قد تَخْدَع الإنسانَ - عند الموت - ؛ فكأيّ مِنْ مَيّت مضى وقد حيل بينه وبين أن يَخْرج من الدنيا بكلمة التوحيد .. وذلك أَشْأَمُ ما في الذنب - ولا ريب - ..

وهل أَهْلَكَ اللهُ مَن أَهْلَكَ مِن القرون مِن لدن نوح إلى قريش والّذين مِنْ بَعدهم إلاّ بذنوبهم !؟

أجل ! فلا ذنب أعظم من الكفر ..

ذلك كُلّه مِن شؤم الذنوب - أخطُّه لك - ، ولكنّ الله - وبواسع رحمته - ينفي بالاستغفار تلك الأمور كلَّها ، ويكفي - مَنْ دَأْبُه الاستغفارُ - الشرَّ ؛ إذ ملازمةُ الاستغفار أَحْرَسُ للعبد مِنَ الحارسِ القويّ الأمين ..

قال ربُّنا - جل جلاله - : (**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** *) (63) ..

---*---

فصل

ألا و إنّ المجاهرة بالذنب أشأمُ - على الأمّة - مِنَ الاستِتار به ؛ فَعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**» **وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»** (64) ..

فانظر - عافاك الله - كيف يقسو المجاهر على نفسه ، وعلى أمّته - من حيث لا يدري ، أو يدري - ..!

قال العلّامةُ شمس الدين السفيري - رحمه الله - :(**... فإن العقوبة قد تعم العاصي والطائع، ويهلك الله الطائع بذنب العاصي**) (65) ..

ألا و إنّ مِن صُوَرِ تلك المجاهرة بالذنب التَّشبُّهَ بِمَنْ لا خَلاقَ لَهُمْ .. و إنّني لا أجد تفسيرًا لِما يَفْعله كثيرٌ مِن هؤلاء المجاهرين إلا الإصرار على ما يفعلون ! و إلاّ فما معنى ألاّ يَسْتُرَ بَشَرٌ على نَفْسِه ؛ والإنسانُ يُدرك - بِما فُطر عليه - أنّ كثيرًا مِنَ المعاصي قَماءةٌ تُخالف الفطرة السليمة .. وصورةٌ مِن الجنون تنافي العقل الرشيد .. ودَنَسٌ يناقض الطُّهْرَ؟!

أمَا إنّهم ما جاهروا إلاّ مِن بَعْدِ ما هَانَ عليهم دينهُم ، وقَدْرُ ربِّهم ، ونَظَرُ الله إليهم ، والملائكةِ ، والناسِ !

ما جاهروا إلاّ مِنْ بَعْدِ ما قستْ قلوبُهم على أنفسهم ، وعلى أمّتِهم ، وإن كان المجاهرون لا يعلمون !

ما جاهروا إلا مِن بعد ما ذَهَبَ منهم الحياءُ الّذي - هو قرينُ الإيمان - (66) ، وصار في النَّفْسِ شيء - مِنْ سلامة فِطَرِهِم ، بل وعقولِهم ، كذلك - ! ؛ يوعظون بالحكمة ، والموعظة الحسنة فتأخذهم العزّة بالإثم ! ثُمّ هُمْ يَطمعون في رحمة الله ! وكأنّهم لا يَعلمون أنّ الأصل في المجاهرة بالذنب أنّها تَستَثْني صاحبَها مِن العافية ، وأنّ أمره إلى الله - إن شاء عَفَا عنه ، وإن شاء عَذّبَه - !

قال النبيُّ - صلى الله عليه وسلّم - : (**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**) (67) ..

وأنّ شؤم المجاهرة عامٌّ - لا يصيبنّ المُجاهرَ خاصّةً - ! - مثل ما قد أشرتُ إلى ذلك أوّلَ هذا الفصل - ..

وأنّ رحمة الله الّتي يَطمع فيها المجاهرُ - وهو الّذي لم يَرحمْ نفْسَه ، ولا أُمَّتَه ؛ تلك الرحمةُ - إنّما هي (**قريب من المحسنين** *) (68) ..

وأنّ الله كَتَبَها (**للّذين يتّقون ويؤتون الزكاة والّذين هُم**) (69) بآيات ربّهم (**يؤمنون * الّذين يتّبعون الرسول**) (70) ، (**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** *) (71) ..!

---*---

فصل

فالذنب - إذًا - شؤمٌ من كلّ وجه - ، والاستهانة به ، والمجاهرة به ، وتركُ الأمرِ بالمعروف ، والنهي عن المنكر - بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن - شرٌّ من الذنب ..

شرٌّ مِن الذنب اليأس من مغفرة الله .. والقنوط من رحمته - سبحانه - .. ومَنْ يَفعل ذلك فقدْ يَحْمِلُه على الإعراض عن التوبة ، والإسراف على نفسه

قال الله - تعالى - : **(إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿﴾)** (72) ..

وقال - سبحانه - : **(وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿﴾)** (73) ..

ففيم التشبّه بهؤلاء .. وهؤلاء .. - إذًا - !؟

شرٌّ من الذنب ازدراءُ الصالحين ، والسخرية منهم .. ومَنْ يفعل ذلك فقدْ يَحمِلُه على أن يَتَنَكَّبَ سبيلَهم - استكبارًا .. واسْتِنْكافًا أن يَتَشَبَّه بِهم - ..

شرٌّ مِن الذنب بَطَرُ الحقّ - دَفْعُه ، وإنكارُه ترفّعًا وتجبّرًا - .. **وغَمْطُ الناس** - احتقارُهم - ..

قال النبيُّ - صلى الله عليه وسلّم - : **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»** (74) ..

شرّ من الذنب التألّي على الله - بلسان الحال ، أو بلسان المقال - أنّه لن يغفر لهم!!

حَدَّث رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ " أَوْ كَمَا قَالَ " (75) ..

كيف !! والمقامُ مقامُ حَمْدٍ لله على العافية مِمَّا ابتلاهم به ، وسؤالِه المزيد مِنَ العصمة والثبات !؟

وهل يأمنُ مَن يَغْمَطُ العصاة ألاّ يُبْتَلى ببعض ما ابْتُلوا به !؟

لو شاء ربّك كنتَ - أيضًا - مِثْلَهم * فالقلب بين أصابع الرحمن (76)

أم هل يَزْعُمُ مَنْ يَتَأَلَّى على الله ألاّ يَحبَطَ عملُه !؟

شرّ من الذنب القول على الله ورسوله - بغير علم -

قال الله - عزّ وجلّ - : (**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** *) (77) ..

---*---

فصل

ذلك ، ومِن الناس مَن يَتَعَلَّلُ بالقَدَر في الذنب ! (78) وكَبُرَتْ كلمةً تخرج مِنْ فمه !!

ألم يجعل اللهُ للعبد - مِنَ الجوارح - ما يستعين به على تبيُّن حقائق الأمور ، ومعرفة صراط الهداية !؟

وجَعَل - مِنَ الآيات - في السموات والأرض ما يَدُلُّ على وحدانيّته - سبحانه - !؟

أَلَمْ يُرسِلْ مِنَ الرُّسل مَنْ أَرْسَلَ .. وأَنْزَلَ معهم مِنَ الكتب ما أنْزَل .. وأيَّدَهُم بما أَيَّدَهُمْ به مِنَ الآياتِ المعجزاتِ ..!؟

وَقَصَّ - سبحانه - ما قَصَّ مِن أنباء ما سَبَقَ ؛ وكيف كانت عاقبة الّذين ظَلَموا منهم..!؟

وأبقى - مِنْ آثارِهم - ما أَبْقى - لِمَنْ أراد أنْ يَعْتَبِرَ - .. وجعل العاقبة للتقوى !؟

وَوَصَفَ الجَنّة ، وما فيها .. ودَلَّ على ما يُقَرِّبُ إليها مِنَ العقيدة ، ومِنْ قَوْلٍ وعَمَلٍ .. ورَغَّبَ في ذلك ..

ونَعَتَ النار ، وما فيها ، ودَلَّ على ما يُقَرِّبُ إليها مِنْ عقيدة وقَوْلٍ وعَمَلٍ .. وَرَهَّبَ مِنْ ذلك !؟

وشَرَعَ الاستغفارَ دواءً لِما جُبِلَ عليه الإنسانُ مِنَ الظلم والجهل .. والخطإ والتقصير .. والسهو والنسيان !؟

وجَعَلَ كُلَّ عَمَلٍ صالحٍ مشروع - يَعْمَلُه العبدُ ابتغاءَ مرضاةِ اللّهِ ؛ جَعَلَه - في حُكْمِ الاستغفار !؟

(**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**) (79) ..

أَلَمْ يُشَرِّعْ اللّهُ مِن الرُّخَصِ ما شَرَّعَ .. وجَعَلَ حُكْمَها - في مَواضِعِها - كَحُكْمِ العزائم - في مواضعها - ؛ رَحْمَةً مِنْه بعباده - سبحانه - ، وأنّه لَم يَجْعَلْ بَيْنَه وبين استغفار مَنْ يَسْتَغْفِرُه .. ودعاءِ مَنْ يدعوه ، ومناجاتِه إيّاه حجابًا ، ولا وسيلةً إلاّ العملَ الصالحَ الّذي شَرَعَ !؟ (80) ..

ألم يَجْعَل اللّهُ جزاءَ الحسنةِ بِعَشْر أمثالها ، إلى سبعمأئة ضِعْفٍ ، إلى ما شاء اللّه ، وأنَّ مَنْ هَمَّ بحسنة وَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ له - بِمَا نَوَى - حَسَنَةً !؟

ألم يَجْعَل اللّهُ جزاءَ سيّئةٍ بمِثْلِها ، وأنّه (**يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** *) (81) ..

وأنّ مَنْ هَمَّ بسيّئةٍ ؛ وترَكَها لله كُتِبَتْ له حسنةً !؟

بلى !؟ ومع ذلك كُلِّه يَدْخُلُ النارَ خَلْقٌ لا يُحْصيهم - عددًا - إلاّ اللّه !!

فلئن كانت الأمورُ كذلك فَهَلْ ظَلَمَ اللّهُ أحدًا شيئًا أنْ أحاط - سبحانه - عِلْمًا بأعمال العبيد الّتي تكون منهم - باختيارهم - ؛ وذلك قبل أن يَخْلُق السموات والأرض - بـخمسين ألف سنة - (82) ؛ فقضى ، وقَدَّرَ عاقبةَ كُلِّ عاملٍ - مُوافقةً جِنْسَ عَمَلِه - ، ثُمَّ يَسَّرَهُ لِمَا يَقْتَضي ما اختار مِنَ العمل !؟

ومع ذلك قَدَّمَ إليهم بالوعد والوعيد ؛ لألّا يكونَ لأَحَدٍ - بعد ذلك كلّه - حُجَّةٌ عليه - سبحانه - ..

رُفِعَتْ الأقلامُ .. وجَفَّت الصُّحُفُ ..

(ولا يَظْلِمُ ربُّك أحدًا *) (83) ..

***

نهاية سدوم..

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ *) (2)

---*---

إن انتكستْ فطرة الإنسان فبطن الأرض خير له من ظهرها .. و إن امْتُهِنَتْ كرامة الرجل ، واختلّ ميزان جبلتِه فلا معنى لحياته ..

ولا يميل الإنسان إلى جنسه إلا إن تشوّهتْ فطرتُه تشوّهًا ، وغلبتْ على جبلّته تلك النوازع البهيمية الطاغية في بعض النفوس البشرية ؛ فيغدو محتاجًا إلى من يُذكّره بشناعة ما تنفر منه البهائم - بغريزتها - ، ويستنكف الحرّ أن يفكر فيه - حتى - ، فما بالك أن يأتيه .. (3)

---*---

لوط نبيّ الله ..

لمّا أُلقي إبراهيم في النار ، وأنجاه الله منها (**آمن له ابن أخيه لوط - عليه السلام** -) (4) ، وهاجر معه (**إلى مصر ثمّ إلى الشام**) (5) (**فنزل إبراهيم فلسطين ، وأنزل ابن أخيه الأردنّ**) (6) ، وأوحى الله إلى لوط - في أمر "سدوم" - ما أوْحى ؛ أوْحى إليه أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده (7) ، وأن يحذّرهم عاقبة ما كانوا يفعلون ؛ إنهم كانوا يهجمون على الفاحشة - كالكلاب المسعورة - فيأتون الذكران من العالمين.. وكانوا يأتون في ناديهم المنكر ؛ واختُلف في معنى ذلك المنكر (8) ..

وكانوا - كالذئاب - يقطعون سبيل من يمرّ عليهم ؛ (**يحذفونه ، ويسخرون منه**) .. (9)

ولربما أخذوا المسافر - إذا مرّ عليهم - (**وعملوا به ذلك العمل الخبيث**) (10) ..

فهل ترك هؤلاء الشياطين لإبليس وذريته من سوء لم يقترفوه !؟

---*---

و إذ قال لوط لقومه :(**أَتأتون الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً**) (11) (**وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم**) (12) (**وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر**) (13) (**بل أنتم قوم تجهلون** *) ..(14)

(فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا) له في تحدّ لم يقدّروا عواقبه:**(ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين *) (15) ..**

وقالوا: **(أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون *) (16) ..**

قال : **(ربّ انصرني على القوم المفسدين *) (17) ..**

---*---

ضيف لوط - عليه السلام - ..

وهل أتاك حديث ضيف لوط المكرَمين - جبريل وميكائيل و إسرافيل - (18) ، إذ دخلوا المدينة (19) - ظهيرةً - متنكّرين في صور ثلاث (**شُبَّانٍ حِسَانٍ**) (20) ؛ فتنة لقوم لوط - بالغة - (21) .. حتى إذا بلغوا نهر "سدوم" وجدوا إحدى ابنتيْ لوط (22) تستقي لأهلها ، قالوا : يا جارية هل من منزل ؟ قالت: (**مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم**) .. وما منعها أن تأذن لهم أن يصحبوها إلى البيت إلا أنها خافت عليهم قومَها أن يَعْلموا بمَقْدَمهم فيبغونهم شرًّا ..

وكان قوم لوط قد نهوه عن أن يضيّف رجلاً ، و إلا رأى منهم ما يسوءه فيه ، قالت: (**يا أبتاه ! أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم**)(23) ..

---*---

وقيل (24) : بل إنّ تلك الملائكة إنّما دخلت "سدوم" ساعة الغروب - في تلك الهيئات البشرية - ، فوجدوا لوطًا يعمل في أرض له ، فاستضافوه فنكرهم - لم يعرفهم - ، وضاق بهم ذرعًا - لِمَا كان يعلم مِن مدافعته قومَه عن ضيفه - تلك الليلة - ، (**وقال هذا يوم عصيب** *) (25) ..

لكنه خشي - إن هو لم يضيّف هؤلاء الغرباء - أن يضيّفهم غيرُه - من أهل قريته - ، فانطلق بهم ، وظنّ لوط أنّ ضيفه من البشر ، وأنهم لو كانوا يعلمون عن "سدوم"

شيئًا ما جرأوا على أن يقربوا هذه القرية ، ولا أن يستضيفوا أحدًا من أهلها .. ووجد لوط نفسَه مضطرًّا إلى أن يُطلع ضيفه على حقيقةِ ما ظنّهم - إيّاه - يجهلون ..

ولكن أنّى له أن يفعل ذلك - وهو الرجل الحييّ - !؟

فجعل يُعرّض لهم في الكلام ؛ يريد لهم أن ينصرفوا عن هذه القرية إلى غيرها .. وكان من جملة ما قال لهم : (**والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء**) (26) .. ثم مضى يسيرًا ، ثم أعاد عليهم مقالته .. حتى قال لهم ذلك أربع مرات (27) ..

وقيل بأنّ (**الملائكة أُمِروا ألاّ يُهلكوا هذه القرية حتى يشهد عليهم نبيُّهم أربع شهادات أنهم قوم فاسقون**) .. (28)

ومضى لوط بضيفه إلى البيت - وهو يتوارى بهم من أعين قومه - ..

---*---

إنّ المرء قد لا يشعر بمبلغ ما كان يشعر به لوط - في تلك الساعة - إلاّ أن يقع المرء في حرجٍ بالِغٍ - كما وقع لوط - ؛ ممّا اضطرّه - عليه السلام - إلى أن يعامِل تلك الضيافة المباركة كما لو كانت عورة يجب عليه أن يسترها ، أو سوءة لا بدّ له من أن يواريها ..

صحيح أنّ إكرام الضيف فضيلة لطالما تباهى بها الكرماء ، وترنّم بها الشعراء ، وتنافس فيها الشرفاء - في تسابق محموم - ؛ فما من ضيف ينزل على كريم ، وبين

قوم ذوي مروءة ووفاء إلاّ ويقيم بينهم على الرحب والسعة - في جوار مرعيّ ، وذمّة رقيبة - حتّى يرحل عنهم ضيفُهم - عزيزًا كريمًا - ..

ولوط - عليه السلام - كان من أعلم الناس بهذا ، ومن أحرصهم على تجسيده ، ولكنّ قومه - ما كانوا ينظرون إلى الضيف - ينزل بدارهم - إلا بتلك النظرات الخائنة .. وما كان حظُّ فضيلتَيِ الإكرام والوفاء للذمم منهم إلاّ الازدراء .. حتّى المضيف بينهم كان مخفور الذمة - ولو كان لوطًا نفسه - ؛ ذلك بأنّ المرء لا يتبنّى الفضيلة - مذهبًا - إلاّ أن يكون على قَدْرٍ منها .. ولا يرعاها حقّ رعايتها حتّى يكون - هو نفسه - فاضلاً .. ولا يرعى حقّ أهلها إلاّ إذا كان مِن أهْلِها ؛ لا يَهتك جِوارًا ، ولا يُرَوِّع مُجارًا ، ولا يَخْفِر ذِمّةً قَطُّ ..

وكلّما كان نصيب المرء من الفضيلة أوْفَر كان لها أشدّ ملازمةً ، وكان لِحَقّها أرعى ، وبقيمتها أعلم ، وبأقدار أهلها أعرف .. والضدّ بالضدّ ..

والفضيلة - في أوسع معانيها - إنّما يرسّخها في النفوس - أكثر ما يرسخها - الإيمان والحياء ؛ فهذان هما قُطبا الفضيلة ..

فأمّا الإيمان فهو سيّدها ، وراعيها ؛ فهو - بذلك - الحائل بين النفوس وأهوائها ..

وأمّا الحياء فهو حارسها ، وعُروة قيودها ؛ فهو بذلك - أيضًا - حائلٌ بين النفوس وأهوائها .. وهو - قبل هذا - شعبة من شعب الإيمان ..

وبين الإيمان والحياء تَلازُمٌ ؛ فهُما كالقرينين ؛ يتأثر كلّ منهما بالآخر - زيادة أو نقصانًا - .. فإنْ ذهب أحدُهما أوْشَكَ الثاني أن يَتْبَعه - ، وإنْ كان الإيمان هو المتحكِّم في منسوب الحياء في النفوس - بحسب قوّة الإيمان أو ضعفه - ولا بدّ ..

- **فأمّا عن تأثير الإيمان في الحياء** : فبيان ذلك أنّه كلّما قوي إيمان العبد ازداد العبدُ من ربّه حياء ، حتّى إنّ بعضَ ذلك ينعكس على حياء هذا العبد من الخَلق ..

وأنّه كلّما كان إيمان المرء أضعف كان حياءُ العبد من ربّه أقلّ ؛ فهانتْ على هذا الإنسان مراقبتُه ربَّه - سبحانه - .. ويوشك لهذا المخلوق أن يهون عليه نظر المخلوقين إليه فيغدو مجاهِرًا بالمعصية - أمامهم - ولا يبالي ..

- **وأمّا عن تأثير الحياء في الإيمان :** فبيان ذلك أنّه متى ما اشتدّ الحياء قام - في أحيان كثيرة - مقام الإيمان - في العصمة - ؛ فما أكثر ما يُعْصَم المستحيي - بحيائه - من الوقوع في كثير من الإثم .. وما أكثر ما يدعو الحياءُ صاحبَه إلى ما يدعوه إليه الإيمان ؛ يدعوه إلى أن يحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وما إلى ذلك ... ، ويَحْمله على ألاّ يراه الله حيث نهاه ، وأن يكون حيث أمره ... وإن ابتُلي صاحبُ الحياء بمعصية أمَرَه حياؤه بأن يستتر ...

وأنّه كلّما قَلّ حياء العبد أوْشَكَ أن يتصدّع - لذلك - إيمانُه ؛ ذلك بأنّ الحياء - ومثل ما سطرتُ معناه آنفًا - هو عروة قيود الفضيلة التي تحول بين المرء وأن يصنع ما شاء ؛ فكلّما تخفّفتْ النفسُ من تلك القيود كان الإنسان - وعلى قدر تخفّفه منها - أقرب إلى أن يخالف ما يدعوه إليه إيمانه من إيتاء الفضيلة ..

فبَيْنَ الإيمان والحياء - إذًا - تَلازمٌ - مثل ما قد قرأتَ - (29) ..

و إنّه لَيَجب على الجريء على ربه - لضعف إيمانه - ، وعلى المجاهر بمعصيته - لقلّة حيائه - أن يحذرا ؛ لا يَذهَبنّ - بذلك - حياؤهما تمامًا - ولو بعد حين - ؛ لمّا يغيب السيّد والحارس - معًا - ، ويرتفع الحائل - تمامًا - ، فيتحرّر الإنسان من كل قيد ، فينطلق - في جموح - وراء نزواته - لا يلوي على شيء - ، حتى توشك تلك الحرية المجنونة أن تعصف بأصل إيمانه ..

وما ضيّع كثير من الناس أصول إيمانهم إلا من بعد ما ذهب عنهم الحياء فانساقوا وراء أهوائهم - إلى أبعد الحدود - فوَلَجوا ميدان الكفر من أوسع الأبواب ..

فهذا تأويلي مدى التلازم بين قُطبَيْ الفضيلة - الإيمان والحياء - زيادةً ونقصاناً وانعدامًا - (30) ..

---*---

ولكنّ ذلك المجتمع السدوميّ ما كان يوجد في معدنه شيء ممّا قد سطرتُ ، فلا مطمع - إذًا ، لذي إصلاح - في إصلاح ذلك المجتمع ؛ تأتي على تركيبة الرجل منهم - تحلّلها - فلا تجد فيها نواة لحياء ، ولا أصلاً لإيمان ، ولا بقايا لفطرة صالحة ، ولا مِرّة سويّة .. فالأمل - إذًا - ساقط - من أساسه - أن يستحيل ذلك المجتمع السدومي - يومًا - مجتمعًا آخر ..

فلا جرم - إذًا - أن لقِيَ لوط - عليه السلام - منهم ما لقي ، وكابد - مِن عَنَتِهم - ما كابد .. وما آمن به (**حَتَّى وَلَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ**) (31) ..

فكيف - إذًا - صَبَرَ لوط - على الإقامة في أرض "سدوم" - تلك المدة كلّها !؟ كيف لم يخرج بابنتيه - في ذلك الوقت - من تلك الغابة البشرية - في أبشع صورها - !؟

أفليست أرض الله واسعة فيهاجروا فيها ؛ وهو الذي ما دخل أرض "سدوم" إلاّ مهاجرًا يوم خرج مع عمّه إبراهيم - عليهما السلام - من أرض الشام - مثل ما سطرتُ - ؟!

إنّ لوطًا - عليه السلام - رسول .. والرسول لا يتحرك من تلقاء نفسه ، ولكن بما يوحى إليه ، فلو أنّ لوطًا خرج من أرض الفاحشة - تلك - قبل أن يؤذن له لربما كان مَثَلُهُ كَمَثَلِ يونس بن متّى - عليه السلام - ..

---*---

في بيت لوط - عليه السلام - ..

ودخل لوط بضيفه البيت حذِرًا .. ولكن هل يَدْرَأ الحَذَرُ القَدَرَ !؟ ألا يؤتى الحَذِرُ مِن مأمنِه - كما قيل - ؟ أو بسؤال أحجى :

- ألا يُمْكِن أن يؤتى المرء من مسكنه ؟

بلى !

- فَعَلى أيّ اعتبار تُذْرَعُ سِعَة البيوت أو ضيقها ؟

أَعَلى اعتبار تقارب الجدران أو تباعدها ؟ فما بال قصور كثيرة - إذًا - ضاقت بساكنيها !؟ وما بال أكواخ حقيرة وَسِعَتْ مَن فيها !؟

إنّ معيار سعة البيت أو ضيقه إنّما هو مقدار ما في البيت مِن أمن وسكينة ؛ فإن كان البيت عَيْبَة نُصْحِ ساكِنِه - يأمن فيه على نفسه وأسراره - فذلك هو البيت - حقًّا..

وأمّا إن كان في البيت مَن يذيع أسراره فلا يعدو ذلك البيت أن يكون جُدُرًا قائمة - سواء قيامُها أم تداعيها - ..

وكذلك كان بيت لوط - على ما يبدو - .. صحيح أنّه كان بيتًا مباركًا - كأنّه الكوكب الدرّيّ في تلك السماء السدومية المُعْتِمة - ، ولكنّ ذلك البيت إنّما استنار بلوط ، ثم بابنتي لوط الطاهرتين .. وأمّا امرأته فكان لها شأن آخر ..

ما أن استقرّ المقامُ بالزوج الكريم ومن معه حتى انطلقت تلك المرأة (32) إلى قومها - في خيانة - تشي بأضياف زوجها المُكْرَمين .. (33) قالت (34) : (**إنّ في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثلهم ومثل وجوههم حُسنًا قط**) (35)

وقيل : بل إنّها أوقدتْ نارًا .. ففهم القومُ الإشارة (36) ..

فأقبلوا على بيت لوط سراعًا - والبشرى تستحث خطاهم - ..

حتى بلغوا المنزل النبوي .. فعلم لوط بمقدمهم ، فسيء بهم .. فاستبق بابَه .. فغلّقه دونهم خشية أن يصلوا إلى ضيفه .. فاشتدّ على قوم السوء أن يكون في منزل لوط مثل أولئك الفتيان وقد حال بينهم وبينهم ذلك الباب الذي سدّه لوط دونهم ، أو لزّه مَلَكٌ ممّن نزلوا في ضيافة لوط - مثل ما قال ابن جرير- (37) ..

ونادى لوط قومه - من وراء الباب راجيًا - : (**قال يقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم**) (38) ؛ (**يرشدهم إلى نساءهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد**) (39) (**فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد** *).. (40) (**قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد** *) (41) ، (**أولم ننهك عن العالمين** *) !؟ (42) ، وطفق القومُ يعالجون الباب - يريدون ما يريدون - ، (**إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** *) (43) ..

فلما أحسّ (44) لوط منهم الإصرار استيأس منهم .. قال:(**لو أن لي بكم قوّة**) (45) تَرْدَعُكم - أيها الفاسقون - (**أو ءاوي إلى ركن شديد** *) (46) مِن أهل وعشيرة تمنعكم عمّا جئتم مِن أجْله (47) .. وكان - كما علمنا - غريبًا بينهم ..

هنالك (**اسْتَأْذَنَ جَبْرَائِيلُ رَبَّهُ فِي عُقُوبَتِهِمْ فَأَذِنَ لَهُ**) (48) فيقال بأنّه (**عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ عَلَيْهِمْ فَضَرَبَ وُجُوهَهُمْ خَفْقَةً بِطَرَفِ جَنَاحِهِ فَطُمِسَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا غَارَتْ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا مَحَلٌّ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ**) (49) .. ، فتولّى القوم مدبرين (**يدوس بعضهم بعضًا**)(50) وهم لا يبصرون ؛ (**يَتَجَسَّسُونَ مَعَ الْحِيطَانِ**) (51) .. ويدعون بالنجاء (52) .. ويقولون : (**سُحرْنا !**) (53) ..

وجعلوا يتوعّدون لوطًا بأن يعودوا إليه متى ما بطل عنهم - بزعمهم - هذا السحر الذي خطف أبصارهم !

فطمأنته الملائكة : (**قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك**) (54) .. ولكنها عهدتْ إليه بأن يَسْري بأهله - سَحَرَ - ، وألاّ يلتفت منهم أحد (**متى ما سمعوا صوت العذاب**) (55) .. وإلا أصيب الملتفتُ بما سيصيب القوم .. إلا امرأتك - تقول الملائكة للوط - إنه مصيبها ما سيصيب قومَها .. (**إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** *) (56) ..

---*---

النهاية..

وخرج نبيُّ الله بأهله تحت جنح الظلام .. وطَفِقَ يَسِيرُ خَلْفهم - كالأَمَنة لهم - .. فلم يلتفت منهم أحد .. ومضوا حيث أمرهم الله .. (57)

فلمّا أشرقت الشمس وجاء أمر ربّك أخذتْ قومَ لوط الصيحةُ (**وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ**) (58) فعمد جبريل - وقيل : ميكائيل - (59) إلى أرض المؤتفكة - بقُراها الخمسة - فاجتثّها من سبع أرضين (60) فرفعها (**حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وزُقاء ديوكهم .. ثم قلبها**) (61).. فأهواها (**فاندكّ بعضها على بعض**) (62) .. فكان (**أول ما سقط منها شرفاتها**) (63) .. فلمّا صار عالي القرى سافلها أُمْطِرَتْ مَصارِعُ القوم بحجارة من سجّيل (**مُعْلمَة مَخْتُومَةً، عَلَيْهَا أَسْمَاءُ أَصْحَابِهَا، كُلُّ حَجَرٍ مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه**) (64) منضود (**يَتْبَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا عَلَيْهِمْ**) (65) ؛ فمن لم يهلك منهم - إذ هوت القرى - أصابه حَجَرُهُ - وهو تحت الأرض - فدمغه ..

ولقد مضت تلك الحجارة - بأمر ربها - تتتبّع (**مَن شذّ منهم في الأرض أنّى وُجِدُوا ؛ حتى إنّ الرجل ليكون يتحدث فيأتيه الحجر سريعًا فيخر صريعًا**) (66) ..

وأمّا امرأة لوط فيقال بأنها خرجت مع لوط وابنتيه ، فلمّا سمعتْ الصيحة ، ووجبة القرى التفتتْ فهالها ما رأت ، فلم تتمالك نفسها أن صاحت : واقوماه .. ! فكان الحجر من نصيبها ..

ويقال: بل إنها مكثت مع قومها تلك الليلة ، فلما جاء أمرُ ربّك أصابها ما أصابهم.. وكذلك عوجل القومُ .. وبَدّل الله تلك القرى (**بَحْرَةً ...**) (67) منغلقة على نفسها ؛ قيل : هي ما يُعرف - اليوم - بالبحر الميت ، وفي هذا اختلاف (68) ، وترك الله القوم آية .. وجعل مهلكَهم عبرة ..(**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** *) (69) ..

---*---

وبعد

قُضي الأمر .. وبقي الوزر ..

لقد ذهبتْ سدوم .. ولكن بعدما أورثَتْهم تلك الفاحشةُ - التي كانوا هم أوّل مَن سَنَّها ؛ أورثتْهم - إثمًا جاريًا ؛ فما مِن ذَكَر - من البشر - يَنْزو على ذَكَر إلاّ وكان لأولئك السدوميّين كِفْل مِن تلك النَّزْوة ..

ولو عجّل اللّهُ لهم العذاب مِن قبل أن يرسل إليهم عبده لوطًا - عليه السلام - لكانوا هم المَلُومين ، ولَـمَا زاد ربُّك على أن عاملهم بعدله - سبحانه - ؛ ذلك بأنّ ثمّة أمورًا يَنفِر منها الإنسان - بفطرته - فلا تحتاج إلى نبيّ ينبّه على فُحْشها، أو رسول ينهى عن قربها ..

ومع ذلك أرسل اللّهُ إلى "سدوم" مَن يُذكّرهم بتلك المسلّمات الأخلاقية .. بيْد أنّ دعوة الرسول ما أغنت عن القوم شيئًا ؛ فأيّ علّة - تلك - التي حالت بينهم وبين الإيمان ؟

إنّ النفوس تنجذب إلى الإيمان ، وتستجيب لداعيه بما تبقّى فيها من فطرتها الأولى - التي فطرها الله عليها - ؛ فيُحْييها الله بتلك البقايا - إن شاء - كما يُحْيي العظام - بعد رِمّتها - مِن أعجاب الأذناب ، ويَحْمي الله تلك البقايا - بقايا الفطرة - ببقيّةٍ من حياء تكون - عادة - متأصّلة في النفوس ، فإن أجدبتْ النفس البشرية حتى من تلك

البقايا - بقايا الفطرة بانعدام حاميها من الحياء - فقد تقطّعتْ بالنفس - إذًا - آخر أسباب الهداية - إلاّ أن يشاء الله - ..

وكذلك كانت نفوس "سدوم" ، فلمّا ناداهم منادي الإيمان في شخص لوط - عليه السلام - أعرضوا ، وكان من أمرهم ما كان ..

فالقوم - إذًا - إنّما أوتوا - أوّل ما أوتوا - مِنْ قِبَلِ حيائهم ، وما تنتظر من قوم لم يكن مَبْلَغُهم من الحياء أكثر من أن ينهوا لوطًا عن أن يضيّف أحدًا من العالمين - النهي فقط!! - ؛ فلم نر للحياء من أثر فيهم يوم قاموا على لوط مهدّدين إيّاه بأنّهم سَيُعِرُّونَه عند أيّ ضيف ينزل به ..

ولم نر للحياء من أثر فيهم إذ جادلوا لوطًا في أضيافه ؛ حتى بَلَغ بِه من الحرج ما لا مزيد له عليه ..

ولم نر للحياء من أثر فيهم يوم أصرّوا على اقتحام الدار حتى طمس الله أعينهم بجناح الملَك ..

وكان ذلك بدايةً لِما كان ينتظرهم - بُكرةً - من العذاب المبيد ..

وحتّى لمّا ذهبت أبصارهم انقلبوا يتوعّدون بأنهم سيعودون - بدلاً من يتفكّروا في أنفسهم ، وينظروا في ما قد آلت إليه حالهم - وهم يحسبون أنهم قد سُحِروا ، مثل ما قد قرأتَ - ، حتى صاروا آية للعالمين ..

ولو أنّ الله - جلّ جلاله - أخّر عن سدوم العذاب ، ومتّعهم إلى حين - أكثر ممّا فعل - ، فهل كانوا لِيُرَوا يتوبون - يومًا - ؟

في تقديري - والعلم عند الله - أنّ ذلك أمر بعيد ؛ فما ظنّك بقوم مُسِختْ فطرتُهم - ذلك المسخ كلّه - ، فغدوا وليس وراء ما بهم من اللؤم لؤم - مثل ما قد قرأتَ - ؛ خلعوا عنهم رداء الحياء .. خالفوا الفطرة السليمة - تمامًا - .. جَنَوا على الفضيلة كما لم يَجْنِ عليها أحد - من قبل - .. ردّوا دعوة نبيّهم - في استخفاف - .. جعلوا الطُّهر مَذمّة .. واعتبروا الطاهرين دخلاء عليهم يجب إخراجهم .. وتعلّلوا - في ذلك ، مستهزئين - بأنّ القوم أناس يتطهرون (70) !! حتى إنّ لوطًا - عليه السلام - لمّا قالت له رسلُ ربّه بأنهم مهلكو أهل تلك القرية قال - مستيئِسًا - : **أهلكوهم الساعة** ! قالت : (**إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** *) (71) ..

أفأولئك يؤمنون ؟!

لقد كان في هلاكهم أكثر من رحمة ؛ رحمة حصلتْ للفضيلة ، والفطرة السليمة قبل أن يَجْنوا عليهما بفاحشة تكون أكبر من تلك التي أَتَوْا ..

ورحمة حصلتْ لأهل الأرض - يومئذ - لا يهلكوا - لو كثر ذلك الخبَثُ وشاع - ..

ورحمة حصلتْ لقوم لوط لـمّا عوجلوا قبل أن يضاعَف لهم العذاب أضعاف ما ينتظرهم - زيادة على كفرهم بلوط عليه السلام - ، ولو عُمّروا ما هو بمُزَحْزِحِهم من العذاب أن يُعمَّروا ..

وتلك المؤتفكةُ قلبوا الفطرة ، فكان جزاؤهم من جنس ما فعلوا

(**وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** *) (72) ..

---*---

الهوامش

(2) الزوجة الثانية

(1) عزّة النفس قد تحمل الانسان على أن يستعمل ضمير الجمع في سياق المفرد

(2) جزء من الآية 187 من سورة البقرة

(3) أعني قول الله - عزّ وجلّ - في الآية 14 من سورة آل عمران : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *)

(4) أعني قول الله - عزّ وجلّ - في الآية 27 والّتي بعدها من سورة النساء : (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا *)

(5) جزء من الآية 21 من سورة الروم

---

(3) صيحة في فلاة ..

(1) الآية 59 من سورة الأحزاب

(2) جزء من الآية 33 من سورة الأحزاب

(3) جزء من الآية 26من سورة النور

(4) هذا ممّا نقَله ابن كثير - في تفسيره - ج 6 ، ص 410 ، وممّا نقله غيره

(5) في حديث الإسراء - من صحيح البخاري ج 4 ، ص 135 ، رقم الحديث 3342 - أنّ النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - رأى آدم في السماء (إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى)

(6) لقد كان الشيطانُ يائسًا مِنْ هؤلاء القليل منذ البداية .. ومع ذلك سعى اللعينُ في سبيل النيل منهم فخيّب اللهُ سعيَه .. فلئن كان هذا حاله مع مَنْ كان يائسًا منهم - ابتداء - أفَتراه تاركًا - بعد هذا - بشرًا دون أن يستغويه ..!؟

(7) قال الله - عزّ وجلّ ، في الآية 14 من سورة آل عمران - : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ*)

فبدأ - سبحانه - بذكر النساء - في هذه الآية - ..

وقال النبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» صحيح البخاري ج 7 ، ص 8 ، رقم الحديث 5096

وقال - أيضًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (...مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ) صحيح البخاري ج 1 ، ص 68 ، رقم الحديث 304

(8) الآية 36 من سورة آل عمران

(9) الآيتين26، 27 من سورة الأعراف

(10) الآية 120 من سورة النساء

(11) الأصل في صاحب المعدن الكريم أنّه إنسان أصيل ؛ لا تتغيّر فيه شيء من تلك الصفات ، والتوفيق من الله وحده

(12) الآية 19من سورة النور

(13) (قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُمْ وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمْ الْبِغَالُ، وَطَقْطَقَتْ بِهِمْ الْبَرَاذِينُ، فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَفِي قُلُوبِهِمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ) .. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للإمام شمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني - المتوفى : 1188هـ - ، ج 1 ، ص 89 ، ولقد سطرتُ هذا المعنى في موضع سابق من هذا الكتاب

(14) جزء من الآية 18 من سورة الحج

(15) أعني داء الإيدز ، أو بعض نظرائه من أدواء الجنس - نسأل الله العافية -

(16) أعني تلك الّتي تبغض الفضيلة .. وقد سطرْتُ في أمْرها ما سطرْتُ

(17) جزء من الآية 19 من سورة النور

(18) أعني حتّى ييسّر الله زواجها فتمضي معزّزة .. مكرّمة .. أو تموت على الحياء والعفاف .. مؤمنة .. صابرة .. محتسبة ..

(19) إنّ من النساء من يأتي الخاطب بيت أهلها فترفضه - بأيّ حُجّة - ؛ لأنّه لا يطابق الصورة الّتي رسمتْها الأفلام لفارس الأحلام في أذهان كثير مِن النساء - اليوم!

(21) شتّان ما بين لص الأعراض ، ولص الأموال .. وما بين ما يُخْلَفُ - إن شاء الله - ، وما لا يُخلف .. وما بين المصيبة التي تأتي بالأجر - إن شاء الله - ، وتستجلب الرحمات ، وتستمطر الدعوات بأنْ يُخْلِف اللهُ خيرًا ، ولربما استدرّتْ إحسان المحسنين - أيضًا - .. والمصيبة التي تأتي بالإثم ، والعار ، وشماتة الشامتين

(22) صحيح مسلم ج 3 - ص 1680 ، رقم الحديث 2128

(23) الآيتين 14 - 15 من سورة القيامة

(24) الآية 70 من سورة الفرقان

(25) جزء من الآية 18 من سورة سبأ

(26) جزء من الآية 88 من سورة هود

(4) الأقربون أولى بالمعروف

(1) جزء من الآية 36 من سورة النساء ، ومن الآية 151 من سورة الأنعام ، ومن الآية 23 من سورة الإسراء

(2) جزء من الآية 83 من سورة البقرة

(3) الآية 14 من سورة لقمان

(4) صحيح مسلم ج 2 ، ص 1148 ، رقم الحديث : 1510 ، قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي - في حاشية شرحه هذا الحديث من مسلم - : (لا يجزي ولد والدا الخ) أي لا يقوم ولد بما لأبيه عليه من حق ولا يكافئه بإحسانه به إلا أن يصادفه مملوكا فيعتقه]

(5) جزء من الآية 48 من سورة الشورى

(6) الآية 24 من سورة الإسراء

(7) مِنْ معاني (كان) أنّها تفيد معنى الدوام

(8) إنّ مِن عظَم حقِّ الوالد أنّه لا يُسأل والدٌ - قَتَلَ ولدَه - لِمَ فَعَل!؟ فهل بقي شيء - بعد هذا - أيّها العاقّون !؟

(9) أجل ! هي أيام معدودة - و إن طالت عليك ؛ هي معدودة - مقارَنة بأعمار الّذين مِن قَبْلنا .. ومقارنة بما مضى مِن عُمر الدنيا .. ومقارنة بالآخرة .. ولكنّ الإنسان عجول .. نسأل الله أن يعاملنا برحمته

(10) الآية 49 من سورة الكهف

(5) ومن البرّ ما يكون عقوقًا..!!

(1) جزء من الآية 15 من سورة لقمان

(2) صحيح البخاري ج 9 - ص 88 - رقم الحديث 7257

(3) جزء من الآية 30 من سورة الروم

(4) جزء من الآية 229 من سورة البقرة

(5) جزء من الآية 1 من سورة الطلاق

(6) تتمة الجزء من الآية الّتي استفتحتُ بها هذا الموضوع ؛ وهي الآية 15 من سورة لقمان

(7) قد سبق تخريجه

(8) قال الله - عزّ وجلّ - في الآية 15 من سورة لقمان : (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ*)

(9) أعني في آخر الموضوع السابق (الأقربون أولى بالمعروف)

(10) جزء من الآية 26 من سورة النبأ

(7) رسالة عزاء ....

(1) جزء من الآية 155 والآيتين 156 و157 من سورة البقرة

(2) تَرِنُّ : تُحدث صوتاً ببكائها عليك

(8) أكل الحلال ، وأكل الحرام ، وأثر هذا وهذا في الإنسان ..

(1) صحيح البخاري ج 3 ، ص 59 ، رقم الحديث 2083

(2) أعني أنّ للحلال وللحرام تأثيرًا - مباشرًا ، وغير مباشر - في دين العبد ، وفي دنياه ، وفي آخرته

(3) لعلّه مَن تَرجم له الإمامُ الذهبي في سير أعلام النبلاء ج 8 ، ص 313

(4) سير أعلام النبلاء ج 12 ، ص 447

(5) تتمّة الكلام - من المرجع السابق - : (ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: أَصْدَقُ مَا يَكُوْنُ الرَّجُلُ عِنْدَ المَوْتِ)

(6) في النور السافر عن أخبار القرن العاشر لمحي الدين بن العَيْدَرُوس - المتوفى: 1038هـ - أنّ هذا القاضي هو نوح ابْن مَرْيَم

(7) هذه الزيادة من عندي

(8) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر لأبي محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة، الهِجراني الحضرمي الشافعي (870 - 947 هـ) - ج 2 ، ص 272 - ، ونقله بمعناه - أيضًا - ابنُ خلكان (المتوفى: 681هـ) في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج 3 - ص 32 ، ونقله عنه صاحب إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال (المتوفى: 762هـ) ج 8 ، ص 161

(9) المرجع السابق

(10) البداية والنهاية لابن كثير ج 13 ، ص 610

(11) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج 6 ، ص 234

(12) سير أعلام النبلاء للذهبي ج 7 ، ص 369

(13) إكمال تهذيب الكمال ج 8 ، ص 159

(14) قد سبق تخريجه

(15) ج م الكلكل - بالفتح - هو البعير عظيم الصدر

(16) جزء من الآية 275 من سورة البقرة

(17) الياقوتة - مواعظ ابن الجوزي ، للإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) ، ص 111

(18) جزء من حديث في صحيح مسلم ج 2 ، ص 703 ، رقم الحديث : 1015 ، والحديث بتمامه قال النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: 51] وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ "

(19) قد سبق تخريجه

(20) جزء من الآية 27 من سورة المائدة

(21) الآية 10 من سورة الحج

(22) صحيح الجامع الصغير وزيادته ج 2 ، ص 831 - رقم الحديث 4512

(23) جزء من الآية 6 من سورة التحريم

(24) جزء من الآية **148 من سورة البقرة**

(9) شؤم الذنوب ..

(1) الآية 41 من سورة الروم

(2) الآية 30 من سورة الشورى

(3) الآية 3 من سورة هود

(4) دواؤك منك ولا تشعر * وداؤك فيك ولا تبصر

(5) صحيح الجامع الصغير وزيادته ج 1 ، ص 158 ، رقم الحديث 556 -

(6) أعني بكلمة (خاصّةً) - في هذا السياق - أنّ التطيّر والتشاؤم مقصورٌ جوازُهُما على الذنب دون سواه ، و إلاّ فإنّ حُكْمَهما في ديننا معلوم

(7) مِن يُمْن الاستغفار والتوبة وبركاتهما أنّهما يجعلان الذنب - على ما فيه من ذلك الشؤم المطْبِقِ - سببًا في الهداية والتوبة ، وفَأْلَ خيرٍ على صاحبِه .. فسبحان مَنْ يُخْرِجُ الحيّ من الميّت ، ويخرج الميّت من الحيّ ..!

(8) أمراض القلوب شتّى ؛ شبهة .. وشهوة .. وغفلة .. وقسوة .. وغِلٌّ .. وحسدٌ .. وكِبْرٌ .. وعُجْبٌ .. وغيْرةٌ .. وكُفْرٌ .. وتعلُّقٌ بغير الله .. وموالاة سواه .. ومعاداة مَنْ والاه .. وسوء ظنٍّ .. ونفاقٌ .. وحُبّ الرئاسة .. واتّباعُ الهوى .. وغرور .. وطولُ أمل .. وجهْلٌ .. ورياءٌ .. وهلَعٌ - وما في الهلع مِنْ الحرصٍ ، والجشع - .. وشحٌّ .. وجبنٌ .. وشكٌّ .. ووسواسٌ .. وسرعةُ الغضب - في أتفهِ سبب - ..

(9) أضربُ لهذا مثلاً ؛ طول الأمل أصل تتفرّع منه الغفلة ، وقد تكون الغفلة أصلاً ويكون طول الأمل فرعًا عنها ..

والحسد من الأصول الّتي يتفرّع عنها الحقد ، وقد يكون الحقد أحد الأصول الّتي يتفرّع عنها الحسد ..

(10) وأيضًا قد يكون في ما يجد حديثِ عهدٍ بتوبةٍ من تثاقل عن الطاعةِ ابتلاء من الله - عزّ وجلّ - ؛ يَمتَحِنُ به توبةَ هذا التائب ؛ فإنْ بَرْهَنَ على صِدْقِ توبته وَفّقَهُ اللّهُ للمضيّ قُدُمًا في سبيل الهداية .. وكأيّ من عمل صالح يَبدأ ضعيفًا ثُمّ يشتدُّ ، ومِنْ بركات الحسنةِ الحسنةُ بَعْدَها ..

قال الله - عزّ وجلّ - في الآية 69 من سورة العنكبوت : (والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلَنا و إنّ الله لمع المحسنين *)

(11) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للإمام شمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني (المتوفى : 1188هـ) - ج 1 ، ص 89 -

(12) الياقوتة - مواعظ ابن الجوزي ، للإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) ، ص 111

(13) غير أعدائه : من سفهاءَ وغيرهم مِمَّنْ قد يكونون - هُمْ ، أيضًا - مَخْذولون بذنوبهم - يَظْلِمون - ..

(14) سِيَر أعلام النبلاء ج 7 ، ص 568 ، وذكر ابن رجب - رحمه الله - في جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ج 1 ، ص 494 : (...فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا اسْتَبْطَأَ الْفَرَجَ، وَأَيِسَ مِنْهُ بَعْدَ كَثْرَةِ دُعَائِهِ وَتَضَرُّعِهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ أَثَرُ الْإِجَابَةِ فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ بِاللَّائِمَةِ، وَقَالَ لَهَا: إِنَّمَا أُتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ، وَلَوْ كَانَ فِيكِ خَيْرٌ لَأُجِبْتُ، وَهَذَا اللَّوْمُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، فَإِنَّهُ يُوجِبُ انْكِسَارَ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ وَاعْتِرَافَهُ لَهُ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لِمَا نَزَلَ مِنَ الْبَلَاءِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَلِذَلِكَ تُسْرِعُ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ إِجَابَةُ الدُّعَاءِ وَتَفْرِيجُ الْكُرَبِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِهِ...) ، فأقول : وهل يؤتى العبد إلاّ بذنبه !؟ ألا و إنّ الإجابة تتأخّر - أحيانًا - بما يكون في قلب الداعي ممّا ينافي العبادة .. وأحيانًا تتأخّر الإجابة لأنّ الله - جلّ جلاله - يريد أن يستخرج من قلب العبد بعض المعاني الروحيّة للعبادة - التذلّل والتواضع له - سبحانه .. وما إلى ذلك ... وفي تأخّر الإجابة - أيضًا - امتحان لصبر العبد .. وتطهير له .. ورفع لدرجته .. وفي تأخير الإجابة - أيضًا - تعجيل لعقوبته ؛ رحمة به ممّا ينتظر أهل الشقاء - غدًا - .. وتظلّ عقول البشر قاصرة عن أن تحيط علمًا بكلّ الأسرار في أيّ حكمة لله - عزّ وجلّ -

(15) صحيح الجامع الصغير وزيادته - ج 2 ، ص 702 -

(16) سنن الترمذي - بتحقيق بشار عواد معروف - ج 2 ، ص 45 ، رقم الحديث : 664 -

(17) مسند أحمد - بتحقيق أحمد شاكر - ج 2 ، ص 105 ، رقم الحديث 1212-

(18) في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - ص 331 - ، في الفرق بين الوهن والضعف (أن الوهن انكسار الجسد بالخوف وغيره، والضعف نقصان القوة) ، وقيل غيرَ ذلك

(19) الآية 52 من سورة هود

(20) صحيح الجامع الصغير وزيادته - ج 1 ، ص ، 634 -

(21) موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان لعبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: 1422هـ) ج 4 ، ص 450، وتتمّة هذا الكلام : (وقَدْ يحفظ اللهُ الْعَبْد بصلاحه فِي ولده وولد ولده كما قيل فِي قوله تعالى: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً} إنهما حُفِظا بصلاح أبيهما)

(22) المرجع السابق ، فأقول : أليس في المسألة من الذلّ ما فيها ، والذنوب - ومثل ما قد مرّ بنا - تورث الذلّ ، وتضيّق الرزق ؟

(23) الآية 125 من سورة الأنعام

(24) جزء من الآية 124 من سورة طه

(25) جزء من الآية 29 من سورة الأنفال

(26) الآية 28من سورة الحديد

(27) جزء من الآية 29 من سورة الفتح

(28) بعضُهم يظنُّه حديثًا نبويًّا ، ولم أجد له سندًا صحيحًا ، و إنّما أوردته قولاً - على سبيل الاستئناس - لا غير

(29) جزء من الآية 282 من سورة البقرة

(30) الآية 16 من سورة الحديد

(31) الآية 43 من سورة الأعراف

(32) صحيح سنن أبي داود -ج 3 ، ص 382 -

(33) مسند أحمد ، تحقيق أحمد شاكر - ج 6، ص 213 ، رقم الحديث : 6654- ، والحديث بتمامه : عنِ عبد الله بن عمرو، أَن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - قال: "القلوب أوْعيةٌ، وبعضها أوْعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل، أَيها الناس، فاسألَوه وأَنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهرِ قلبٍ غافل"

(34) الآية 4 من سورة الطلاق

(35) من الآية 5 إلى الآية 10 من سورة الليل

(36) الآية 2، وجزء من الآية 3 من سورة الطلاق

(37) الآيات 10 - 11 - 12 من سورة نوح

(38) جزء من الآية 52 من سورة هود

(39) المستدرك على الصحيحين للحاكم ج4 ، ص 582 ، الحديث 8623 -

(40) الآية 96 من سورة الأعراف

(41) الآيتين 160 - 161 من سورة النساء

(42) جزء من الآية 146 من سورة الأنعام

(43) جزء من الآية 112 من سورة النحل

(44) أعني أنّ تلك الأمم ليسوا سواء - في بعض ما أحلّ اللّهُ لها ، أو حرّمه عليها - ؛ فمعنى المعصية يختلف - بذلك - من أمّة إلى أمّة

(45) الآية 35 ، وجزء من الآية 36 من سورة البقرة

(46) الآيتين 121 ، 122 من سورة طه

(47) جزء من الآية 87 من سورة الأنبياء

(48) الآية 142 من سورة الصافات

(49) جزء من الآية 87، وجزء من الآية 88 من سورة الأنبياء

(50) الآيتين 143 ، 144 من سورة الصافات

(51) الآيات 73 - 74 - 75 من سورة الإسراء

(52) الآيات 44 ، 45 ، 46 ، 47 من سورة الحاقّة

(53) الآية 155 من سورة آل عمران

(54) الآية 165 من سورة آل عمران

(55) الآية 25 من سورة التوبة

(56) جزء من الآية 63 من سورة النور

(57) أعني قولَه : (إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي)

(58) الآيات 10-11-12 من سورة نوح

(59) الآية 4 من سورة الطلاق

(60) أؤكّد على أنّ إنكار المنكر يجب أن يكون خاضعًا للضوابط الشرعيّة .. والقواعد المرعيّة ..

(61) صحيح مسلم - ج 4 ، ص 2030 ، رقم الحديث : 2637- ، والحديث بتمامه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ "

(62) الآية 96 من سورة مريم

(63) جزء من الآية 32 من سورة الأنفال

(64) صحيح البخاري - ج4 ، ص 138، رقم الحديث 3346 -

(65) المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم من صحيح الإمام البخاري - ج 1 ، ص 443 -

والعلّامة السفيري هو شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي (المتوفى: 956هـ).

فأقول : عمدًا تركْتُ الاستدلالَ بقول الله - جلّ وعلا - في الآية 25 من سورة الأنفال : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *) ؛ وذلك لِما قرأتُ مِن اختلافِ المفسرين في تفسيرهم معنى الفتنة في هذه الآية ؛ فعلى سبيل المثال ذَهَب ابنُ أبي حاتم في تفسيره إلى أنّ الفتنة - هنا - هي الضلالة (ج 5 - ص 179) .. وقال غيرُه بغير هذا المعنى ..

كما أنني لم أشأ أن أَفتح على قارئ هذه الرسالة بابَ فقه تغيير المنكر ، وما قال المفسرون في ذلك - وهُم يفسرون هذه الآية - ..

وللسبب ذاته آثرْتُ تركَ الاستدلالِ بحديث السفينة (مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا ..) ، فإنّه - ومِثْلَ ما قيل - : إذا كثرتْ التفاصيل تاهَ اللبُّ

(66) لا أعني انتفاء مُطلق الإيمان عنهم ، وأخطّ في هذا السياق أنّ من كان يريد أن يكنّ نساء بيته حافظات له بالغيب فليلزمهنّ ببرنامج عبادة مشروعة ، ثمّ له أن يكلهنّ إلى إيمانهنّ ..

(67) صحيح البخاري - 8 ص 20 ، رقم الحديث : 6069- ، والحديث بتمامه : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - يقول : "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ " ، قال الشيخ مصطفى البغا في حاشية شرحه هذا الحديث - من صحيح البخاري - : (معافى) يعفو الله تعالى عن زلته بفضله ورحمته. (المجاهرون) المعلنون بالمعاصي والفسوق. (المجاهرة) وفي رواية (المجانة) وهي الاستهتار بالأمور وعدم المبالاة بالقول أو الفعل.

أَلَا إنّ المجاهر داخلٌ في مشيئة الله - إن شاء عَفَا عنه ، و إن شاء عَذّبَه - ما لَمْ يَسْتَحِلَّ معصيتَه ، فإن فَعَلَ كَفَرَ ..

(68) جزء من الآية 56 من سورة الأعراف

(69) جزء من الآية 156من سورة الأعراف

(70) جزء من الآية 156 ومن الآية 157 من سورة الأعراف

(71) الآيتين 135 - 136 من سورة الأعراف

(72) جزء من الآية 87 من سورة يوسف

(73) جزء من الآية 56 من سورة الحِجْر

(74) صحيح مسلم ج 1 ، ص 93 ، رقم الحديث 91

(75) صحيح مسلم ج 4 ، ص 2023 ، رقم الحديث 2621 قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في حاشية شرحه هذا الحديث من صحيح مسلم :

(يتألى) معنى يتألى يحلف ، والألية اليمين

(76) نونية ابن القيّم

(77) الآية 33 من سورة الأعراف

(78) يتعلّل بالقدر ؛ يقول : إذا كان اللهُ قد قَدَّر عليّ المعصيةَ فَلِمَ يعذّبني !؟

(79) جزء من الآية 114 من سورة هود

(80) بلى ! و إنّه لَمْ يُحْجَبْ دعاءٌ ، ولا مناجاةٌ ، ولا رُدَّ استغفارٌ إلاّ بِصُوَرٍ مِن الإثم والعدوان ، وعلى المُتَلَبِّسِ بشيء من ذلك الخروج - أوّلاً - ممّا تلبّس به

(81) جزء من الآية 30 من سورة الشورى

(82) قال النبيُّ - صلى الله عليه وسلّم - : "قَدرَ الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة" والحديث في مسند أحمد ، تحقيق أحمد شاكر ج 6، ص 152 ، رقم الحديث 6580

(83) جزء من الآية 49 من سورة الكهف

(10) نهاية سدوم ..

(1) هي قرى قوم لوط - عليه السلام ، ويقال لها المؤتفكة ، والمؤتفكات ، وهي قرى مُتتاخمة ، واختلفوا في موضعها وعددها وأسمائها

وقال الشيخ وهبة الزحيلي في تفسيره - التفسير المنير ، ج 12 ، ص 114 - : (... وقوم لوط أهل سدوم في الأردنّ ...)

(2) من الآية 80 إلى الآية 84 من سورة الأعراف ، وقصّة لوط - عليه السلام - جاء ذِكرها في مواضع شتّى من كتاب الله

(3) بهذه الفقرة ختمتُ مقدّمة هذا الكتاب

(4) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج 1 ، ص 90 - قال : (وآمن له لوط بن هاران ، وهو ابن أخي إبراهيم ...)

(5) الكامل في التاريخ ، ج 1 ، ص 91 ، قال - لمّا ذكر هجرة إبراهيم - عليه السلام - : (فخرج مهاجرًا حتى قدم مصر ...) ، ثم قال ابن الأثير في تاريخه - ج 1 ، ص 106 - : (قد ذكرنا مهاجر لوط مع إبراهيم - عليه السلام - إلى مصر ، وَعَوْدَهُمْ إلى الشام ...)

(6) تاريخ الطبري بتصرف - ج 1 ، ص 293 -

(7) قصص الأنبياء لابن كثير - ص 259 -

(8) قيل : كان القوم (يتضارطون في مجالسهم) ، وقيل: (كان بعضهم ينكح بعضا فيها) نقل هذا المعنى ابن جرير الطبري في تاريخه - ج 1 ، ص 293 -

(9) هذا ما رجّحه ابن جرير في تاريخه - ج 1 ، ص 295 - بعد أن نقل خلاف أهل العلم في معنى قول الله - عز وجلّ - : (وتأتون في ناديكم المنكر)

(10) تفسير الطبري - ج 18 ، ص 388 - ، وذكر هذا - أيضًا - ابنُ الأثير في تاريخه - ج 1 ، ص 106 ، وذكره آخرون من أهل العلم

(11) الآية 80 وجزء من الآية 81 من سورة الأعراف

(12) الآية 166 من سورة الشعراء

(13) الآية 29 من سورة العنكبوت

(14) جزء من الآية 55 من سورة النمل

(15) الآية 29 من سورة العنكبوت

(16) جزء من الآية 65من سورة النمل

(17) جزء من الآية 30 من سورة العنكبوت

(18) قصص الأنبياء لابن كثير ، ص 262

(19) مدينة "سدوم"

(20) المرجع السابق

(21) المرجع السابق

(22) ذكر ابن كثير في قصص الأنبياء - ص 263 ، والطبري في تاريخه ج 1 ، ص 299 - أنه قد كان للوط ابنتان ؛ اسم الكبرى (ريثا) ، والصغرى (ذغرتا) – قصص الأنبياء -

(23) المرجعين السابقين

(24) قصص الأنبياء لابن كثير ص 263

(25) الآية 77 من سورة هود

(26) قصص الأنبياء لابن كثير - ص 263 ، والطبري في تاريخه ج 1 ، ص 299

(27) قصص الأنبياء لابن كثير ج 1 ، ص 263

(28) ذكر هذا المعنى الطبريُّ في تاريخه ج 1 ، ص 299

(29) مِنَ الناس مَنْ حياؤه من الله أشدّ ، ومنهم من حياؤه من الناس أشدّ ، ومنهم من يستحيي من الخالق والمخلوق على سواء , ومنهم من لا يستحيي من أحد ، ومنهم من يستحيي من الناس ، ولا يستحيي من الله - يعصيه سرًّا ، ولكنّ هذا - ومثل ما قد سطرتُ المعنى فيه - أمرُه وشيكٌ ؛ لن يظلّ على ما هو عليه حتّى يصير إمّا إلى توبة ، و إمّا إلى تفلُّتٍ -

(30) إنّ في الفضيلة من قوة التغيير والإصلاح ما يقلب الطبع البشري - إن شاء الله - من النقيض إلى النقيض ؛ كم من امرئ كان - إذ كان على غير الاسلام - فيه من خصال السوء ما فيه ، فما هو إلاّ أن مَنّ الله عليه بالهداية حتى رُزق معها - هذا المهتدي - الحياء .. أو قل : رُزق الفضيلة - بقطبيها - فغدا عبدًا فاضلاً ، وأمّا عنه - قبل هدايته - فذلك إنسان آخر لا يَشْرُفُ بأنْ كان هو

(31) البداية والنهاية لابن كثير - ج 1 ، ص 413 -

(32) قال ابن كثير : قال السهيلي : واسم امرأة لوط (والهة) ... ، - البداية والنهاية ج 1 ، ص 420 -

(33) أعني خيانة الدين ، لا خيانة العِرض ؛ فـ (ما بَغَت امرأة نبيّ قَطّ) - كما قال ابن عباس وغيره ، كابن كثير في البداية والنهاية ج 1 ، 422 - ..

ألا إنّ الخيانة ليست مصطلحًا جامدًا يحمل مدلولاً واحدًا فقط ؛ بل هي عنوان فضفاض يشتمل على صور شتّى ؛ فالخيانة في العِرض .. والكذب من الخيانة ، واستراق السمع من الخيانة ، وخائنة الأعين خيانة ، والمرأة تهتك ستر بيتها ، و تذيع سرّ زوجها ، و تفضح أهلها ... إنما هي تأتي ألوانًا من الخيانة ..

(34) في تاريخ الطبري - ج 1 ، ص 301 - أنّ لوطًا - عليه السلام - كان قد أخذ على امرأته ألا تذيع شيئًا من سرّ أضيافه

(35) تاريخ الطبري - ج 1 ، ص 300 -

(36) تفسير القرطبي ج 18 ، ص 202 ، وتفسير البغوي ج 5 ، ص 123

(37) تاريخ الطبري - ج 1 ، ص 303

(38) جزء من الآية 78 من سورة هود

(39) تفسير ابن كثير - ج 4 ، ص 337 -

(41) الآية 79 من سورة هود

(42) الآية 70 من سورة الحجر

(43) الآية 74 من سورة الأنبياء

(44) أحسّ : وَجَدَ ، علم ، (فلمّا أحس عيسى منهم الكفر قال...) الآية 52 من سورة آل عمران

(45) الآية 80 من سورة هود

(46) الآية 80 من سورة هود

(47) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " ...وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " صحيح البخاري - ج 4 ، ص 147 ، رقم الحديث 3372

وفي مختصر التفسير لابن كثير - ج 2 ، ص 227 - معنى (الركن الشديد) أنه الله - جلّ جلاله - ، وفي تفسر الطبري - ج 12 ، ص 509 - معنى (الركن الشديد) قال : العشيرة ، وقال : إلى ركنٍ مِن الناس ، وقال : يَقُولُ: إِلَى جُنْدٍ شَدِيدٍ لَقَاتَلْتُكُمْ

(48) الكامل لابن الأثير - ج 1 ، ص 108 -

(49) البداية والنهاية لابن كثير - ج 1 ، ص 181 -

(50) الكامل لابن الأثير- ج 1 ، ص 108 -

(51) البداية والنهاية لابن كثير - ج 1 ، ص 181 -

(52) الكامل لابن الأثير - ج 1، ص 108 -

(53) تاريخ الطبري - ج 1 ، ص 306 -

(54) جزء من الآية 81 من سورة هود

(55) البداية والنهاية لابن كثير - بتصرّف - ج 1 ، ص 181 -

(56) جزء من الآية 81 من سورة هود

(57) في الكامل لابن الأثير - ج 1 ، ص 108 - أنّ الله أخرجهم إلى الشام

(58) تفسير ابن كثير - ج 4 ، ص 543 -

(59) الكامل لابن الأثير - ج 1 ، ص 108 -

(60) تاريخ الطبري - بتصرف - ج 1 ، ص 306 -

(61) المرجع السابق - بتصرف -

(62)تاريخ الطبري - بتصرّف - ج 1 ، ص 305 -

(63) البداية والنهاية لابن كثير - ج 1 ، ص 182- ، وكذلك الطبري في تاريخه - ج 1 ، ص 305 -

(64) تفسير ابن كثير - ج 4 ، ص 340 -

(65) تفسير الطبري - ج 12 ، ص 529 -

(66) تاريخ الطبري بتصرف - ج 1 ، ص 306 -

(67) البداية والنهاية لابن كثير - ج 1 ، ص 423 -

(68) قال صاحب صفوة التفاسير : قال المفسرون : وقد صار موضع تلك المدن بحرًا أجاجًا يُعرَف بـ (البحر الميت) لأن مياهه لا تغذي شيئًا من الحيوان ، وقد اشتهر باسم (بحيرة لوط) والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئًا

(69) جزء من الآية 83 من سورة هود ، قال ابن كثير في قول الله - عزّ وجلّ : " وَمَا هِيَ من الظَّالِمين بِبَعِيد " أَيْ وَمَا هَذِهِ الْعُقُوبَةُ بِبَعِيدَةٍ مِمَّنْ أَشْبَهَهُمْ فِي فِعْلِهِمْ.

وَلِهَذَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ اللَّائِطَ يُرْجَمُ، سَوَاءٌ كَانَ مُحصنا أَولا.

وَنَصّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَطَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ.

وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ ".

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَن اللائط يلقى من شَاهِق [جبل] وَيُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ كَمَا فُعِلَ بِقَوْمِ لُوطٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: " وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمين بِبَعِيد " ا.هـ - قصص الأنبياء ص 270-

(70) الآية 56 من سورة النمل

(71) تاريخ الطبري - ج 1 ، ص 301 - ، وفيه أنّ الذي قال ذلك هو جبريل

(72) جزء من الآية 33 من سورة النحل

تم بحمد الله.